حنين

يعود الماضي ...سرابًا

رواية

سهير عبدالله رخامية

ليليت للنشر والتوزيع

حنين

الماضى يعود سرابًا

رقم الايداع / ٢٠٤٧ / ٢٠١٤

الترقيم الدولى / ٩ - ٥٥ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

غلاف / محمد وحيد انور

حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

هيئة تحرير ومراجعة

د/ سالم ابراهيم سالم

أ / رشا زقيزق

أ/ محمود السيد

المراسلات : ٦٠ ش سكينة بنت الحسين

كفر عبده - الإسكندرية

ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧

: ٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧

Dar.lilitte@gmail.com

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithpublishinghouse.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤن الفنية

سهير عبد الله رخامية

حنـين

دار ليليت للنشر والتوزيع ،٢٠١٤ ط١

ص ،سم ١٣×٢٠

تدمك /٩-٥٥ -٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

رقم الايداع / ٢٠٤٧/ ٢٠١٤

إلى أمي ...إلى النبض الذي أعطاني الحياة لأعيش.

إلى كلِّ أمٍّ تعيش حلمَ الأُمومة وتجسّده عطاءً " ونجاحًا" لأولادها وعائلتها.

إلى كلِّ أمٍّ عرفتْ معنى الفصلِ بين الخطأِ والصواب لمتابعة الطريق رغم كلِّ العثرات التي مرت بنا، وتركت بصمةً جميلةً للحياة.

إلى كلِّ زوج وزوجة طال بحثهم عن السعادة وهي بين أيديهم.

إلى كلِّ فتاةٍ تاهت عن الطريق ولم تعرف العودة.

إلى كلِّ شابٍّ حطَّمَ قلبًا صغيرًا ومضى لغروره.

إلى كلِّ يدٍ امتدت لتأخذَ بيد أخرى لمتابعة الطريق بصدقٍ وحبٍّ.

إلى الصدق الذي نحتاجه، نراه أمامنا ونبعد عنه.

إلى كل هؤلاء..

أهدي كتابي هذا

سهير

الكتابةُ هي استعارةٌ عن الواقع الذي نعيشه مع الآخرونقله للآخرين، هي حياتُنا اليوميةُبكل أشكالها وألوانها، ننقلها رواياتٍ وقصصًا وحكايا حدثت معنا أو مع غيرنا في هذا العالم الواسع الذي يضم كل التناقضات فيه، فيغير مسارَ حياتنا اليومية ربما للأحسن، وربما للأسوء ولكنه يُغيِّر؛ لهذا نكتب لِننقُلَ الإحساسَ بالآخر ونجسِّد الواقعَ من خلاله بعملٍ أدبيٍّ راقٍ.

سهيرعبدالله رخامية

هل ننسى الروح وسط ذكريات الجسد؟! الروح هي المحرّكُ الأساسي لحياتنا اليومية،هي النبض الذي يحركنا جسدًا وكِيانًا، التقينا ....كان لقاءً عابرًا وغيرَ عادي بين زحمة الموظفين بالوزارة حيث كنتُ أعمل وأنا بسنواتي الجامعية الأُولى لكلية الآداب.

وأنت؟ لا أعرف عنك أيَّ معلومةٍ، لم أشاهدك من قبل إلّا اليوم قُرْبَ مكتب السكرتارية بيدك مجموعةُ أوراقٍ، اصطدمنا ببعض، وصدمتني المفاجأة حين تناثرتِ الأوراقُ من بين يديك واختلطت مع الأوراق التي كنت أحملها، لتقع على الأرض وتقع معها رائحة عطرك لتمتزج برائحة عطري، فلم أعد أميزُ الرائحةَ التي عبقت بيننا وشدّت نظراتِنا ليرى كلٌّ مِنّا الآخر.

توقفتْ يدانا وهي تُلَمْلِمُ تلك الأوراقَ المبعثرة هنا وهناك، ونظراتُنا ما زالت تبحث عن شيءٍ وقع منّا وأصبح بيننا لا ندري ما هو!

أخذنا نعتذر بصوتٍ لا يكاد يسمعه أحدٌ سوانا. أخذتُ أوراقي متابعةً ما جئتُ لأجله، وأنت لملمت أوراقَكَ وأخذت طريقك عائدًا من حيث أتيت. لم أكن أعلم أنك تعمل بالمجال الاقتصادي وتتابعُ أوراقَ تعيِنكَ، هذا ما عرفتُه من زميلتي دعاء في مكتب السكرتارية حيث وقفتْ تضحك متِّي عندما رأتني وأنا مرتبكة والأوراق بيدي، استقبلتني قائلة:

- حنان ألم تعرفيه؟ أليس شابًا ظريفًا؟

لم تترك لي مجالًا للردِّ، تابعتْ:

- اِنه ناجي خريج تجارة واقتصاد، يتابع أوراقَ تَعْيِنِهِ بعد انتهائه من الخدمة الإلزامية.

ما أظرفه من لقاء! تابعت ضاحكة ما زالت ..أنهيت عملي عند دعاء وأنا خائفة أن ترى ما بداخلي من ارتباكٍ، لماذا؟!

- لا أعرف.

ربتتْ على كتفي قائلةً:

- تعالي نشرب القهوة معًا، لم أشرب قهوة الصباح بعد.

قلتُ لها:

- لا أستطيع لدي أعمالٌ كثيرة اليوم ومراجعون، اتركيها لوقتٍ آخر، وغادرت .

لم أجد بعدَ ذلك تفسيرًا، لماذا أعطيتُ لنفسي كلَّ هذا الاهتمام بك لأسمع ما يقال عنك دون أن أسأل؟! وشيء بداخلي يقول لن يمرَّ هذا اللقاء

عاديًّا، سيكون له وقفة بحياتي وسيترك شيئًامنك بداخلي، أو أنه ترك.

مرّت أيامٌ ونسيت تلك الحادثة ونسيتُك أيضًا، أو تناسيتك،وربما اعتقدت أنني نسيت!

ذاتَ يومٍ رأيتُك، رأيتك وأنا أغادرُ مكتبي لمراجعةِ أمرٍ ما، لَمَحْتُكَ في غرفةِالمدير المالي، وكثيرًا ما أصبحت أراك.

أراك تمرُّ من أمام مكتبي تعلِّلُ لنفسِكَ كثرةَ الذهاب لدورة المياه؛ لأن الطريق إليها يمر من أمام غرفة مكتبي.

كثيرًا ما قالت لي زميلتي فاطيما:

- حنان ألم تلاحظي اهتمامَ ناجي بكِ؟

سألتها: - ناجي مَن؟

قالت:- ذلك الشاب، خريج التجارةوالحديث التعيين.

قلت:- آه، لا.. لم أنتبه، ولم ألاحظ، فأنا لا أعرفه.

أخذت تصفك لي، وعندما مررت بتلك اللحظة،قالتْ: حنان انتبهي سيعود بعد لحظات فهو دائمُ المرور من أمامِ مكتبك.

قلتُ:- لم أنتبه، ولماذا يهتم بي ؟...لمَ ..وأنا أتابع أوراقًا بيدي ...

ضحكتْ قائلة:- القلب وما يهوى.

أخذت نَفْسَها وذهبتْ لعملهاضاحكةً، ضحكتُ معها وأنا أقول: -لله درُّكِان علقتي على موضوعٍ

لاينتهي إلا حين يأخذك ويشغلك عنه موضوعٌ آخر.

فاطيما هذه صديقةٌ وزميلة أحببتُها كثيرًا برغم المفارقات الكثيرة بيننا، ننسجم أحيانًا بهدوئنا، وأحيانًا نختلف كثيرًا بآرائنا، فطريقة تفكيرنا تختلف.

كُنا نتشابه بأمورٍ ونختلف ببعض الأمور، وطيبة قلب فاطيما وبساطتهاهي التي تجعل لها مكانةً في قلبي.

أذكر أيضا أنك أصبحت تأتي كلَّ صباحٍ لتشربَ قهوتك معنا، تطلبها من العمِّ(أبو خليل)، تدخل بثقةٍ كبيرة, وهو وراءك يحمل صينية القهوة لنا نحن الثلاثة، أنت وأنا وزميلي سميرالذييعمل معي. أصبح أقربَ صديقٍ لك مع الأيام.

كثيرًا ما كنتُ أعتذر في البداية, بأنني لا أشربُ القهوة، أو أنني شربتُ

قهوتي؛ لكي أتخلصَ من هذا الارتباك الذي ينتابني بوجودكلآخُذَ حريتي منكقبل أن تحدِّدَوتفرضَ علينا متى نشرب قهوتنا. كأنه تصرفٌ منِّي للمشاكسة، أو نوعٌ من إثبات الذات، أوتمردٌ على الثقةِ التي تتصرّف بها معنا. لا أعرف إن كان هذا هو السبب، أم غيره!

بعدها أَخَذَ وجودُك بيننا شكلَه الطبيعي والذي فرضته أنت بيننا، كلما مرت الأيامُ تزداد معرفتك عن طريق مراقبتك لي.

كأنك أتيت إلى الوزارة لمراقبتي، وليس لتعمل فيها!

هذا أيضا ما نبهتني عليه فاطيما، فلم يعد لها عملٌ سوى متابعتها لتطورِالعلاقةِ التي سعيتَ لها وأصبحت بيننا.

قلت لي: أنك سألتَ عنّي أكثرَ من زميلٍ وزميلة، والكلُّ أخبركأنك لن تستطيعَالتقربَ منّي ولن تصلَ إلى أيّ نتيجةٍ.

كل هذا وأنا لم أعرف، ولم أهتم لما سمعتُه من فاطيما.

بعد أن تعودتُ عليك وعلى وجودك وعلى تصرفاتك لكي تلفت انتباهي إليك، وتذكرني بأنكمن اصطدمت معه ذلك اليوم، تذكِّرُني بذلك بين فترةٍ وأخرى لو سَمَحَ لك الوقت من حينٍ لآخر بدون أن ينتبه لك أحدٌ،

وكأنه أصبح طريقَك الوحيد للوصول إليّ.

عدتُ بذاكرتي لأستعيد معها ما حصل.

أذكر ذلك اليوم، أذكره جيدًا.. كنتُ أرتدي بنطالًاوجاكيتًا بلونٍ أبيض وبلوزة مخططة بالأحمر والأبيض، شعرٌ طويلٌ يَنْسَدِلُ فوقَ أكتافي ناعمًا تَعْبَقُ فيه رائحةٌ أنثويةٌ لفتاةٍ تحملُ ملامحَ غربية، وعيونٌ زيتونية، وبشرة برونزية ناعمة.

كان لي وقتها نوعٌ من الثقة الكاملة بنفسي، وليس غرورًابأنّ النظراتِ تلتهمني مشدودةً بإعجابٍ كبيرٍ حتى لكبريائي وغروري الذي لا يتوقف أبدا، يرافقه وصفهم لي!

آهٍ، ما أجمل تلك الأيام!

أواخر الربيع وأوائل الصيف، ورائحة الربيع والياسمين والورد الجوري بحدائق المنازل

تمتزج بكلِّ ماهو جميلٌ وبرّاقٌ بالأُلفة والمحبة، إنها دمشقُ وجمال دمشق بكلِّ فصولها، الخضرةُ تُلوّنُ الطبيعةَ بألوانٍ زاهيةٍ وجميلة.

كلُّ شيءٍ يتفتّحُ شهيًّا كوردةٍ جورية تَعْبَقُ بأريجها الأخاذ. والياسمين

يزين الطرقات، ورائحتُه تتسلّلُ بهدوءٍ إلى جوانحنا ونحن نمرُّ به كلَّ صباحٍ كأنها ترانيمُ صلاةٍ مع صوتِ فيروزعلى أوتارِ نسماتِ الصباح الباردةِ نوعًا ما، نشعر بوجودهووجودنا معه، نبحث عن الحبِّ أن يأتي إلينا لا أن نذهب إليه.

سنة عن سنة عم تغلا ع قلبي عهد الولدنة

وكل سنة بحبك أكتر من سنة

عم تهدل اليامة وغرقني الحنين

حبك وأيامي وحكايات السنين.

وحكايات السنين والحب كلها تجمّعت في ذاكرتي اليوم؛ لأعودَ معها إليك..وجئتَ أنت بكلِّ الشباب والحيوية تَحُومُ حولي كفراشةٍ يستقطبها الضوءُ عن بُعدٍ، ويجذبها إليه ليقتل كلَّ النهايات التي لم تنتهِ لشابةٍ بعمرِالزهور التي لم تتفتح ولم تعرف من الحياة الكثير بعد لأعطيك كل الاهتمام. انتظرتُ طويلًا أكثرَ من سنة وأنت تحاول التقرّب منّي، وأحاول الهروبَ وعدم الاهتمام بك، ولم أكن أعرف أنّ كلّ ذلك كان وقتها خوفًا من النهاية التي وصلنا لها!

في غَمْرَةِ هذا الجنون، بدأت العيونُ تلاحقنا وهذا ما كنتَ تسعى إليه حين بدأتِ الزميلاتُ والزملاء يلمحون، يتهامسون، ويحاولون إبعادك عنّي والاهتمام بغيري، وربما بهم؛ لأني لا أُعيرك الاهتمام.

عزّعليهم ذلك،يسألونك لماذا حنان دون الأُخريات ممن يستحقونك؟!

أمامَ كلِّ ذلك حاولتُ إخفاءَ مشاعري المختلطة غير الواضحة لِمَا بدأتُ أحسُّه تجاهك.

أهو نوعٌ من الغرور؟!غرور الأنثى، أم غرور التحدي؟

أهو نوعٌ من الرضى لاهتمامك بي، أم لشخصك الذي اختارني دون الأُخريات من الزميلات؟

ماالذي كان يسحبني إليك دون تفكير؟

مضى على تَعْيِنِكَ ووجودِك بيننا أكثرَ من سنة، بدأت تتكلّمُ معي وأشاركك قهوةَ الصباحِ برغبة منّي أخيرًا .تنتظرني كلَّ صباحٍ لنأتيَ معًا، أو نعود بعد انتهاء الدوام.

مع الأيام وجدتَ لنفسك أكثرَ من سببٍ لتزداد قربًا منّي بعد أن أصبح لعملِكَ طريقًا يصلُكَ باختصاصِ عملي بقسم التسويق والتجارة.

أصبحت رئيسًا للقسم الذي أعمل فيه، وأصبحنا أقربَ من بعضنا في قسمٍ واحدٍ ومكتبٍ واحد، أنت وأنا وسمير زميلي القديم بالمكتب الذي أصبح أقرب صديق لك، عَرَفَ عن اهتمامك بي قبل أن أعرف!

جاء يومٌ طلبتْ فيه التحدُّثَ إليّ بموضوعٍ مهمٍّ، على الأقل بالنسبة لك، هذا ما ذكرتَه لي وقتها،اتفقنا على موعدٍ في السادسة مساءً، حدّدتَ المكانَ والزمانَ الذي اخترته أنت وحدك!

وصلتُ المنزل ذلك اليوم وشيءٌ بي قد تغيّر، كبُرتُ بسرعةٍ سنواتٍ، ازددت طولًا، ربماهذا ما لفت انتباه أُمّي حين سألتني فور وصولها من عملها:

- حنان، ماذا بكِ؟ كأن تغيُّرًا حَدَثَ لك أو كأن شيئًا يشغلك عمّن حولك! تعالي نتناول الغداء ونتحدث كما تعودنا.. أجل كما تعودنا ....فقد تعوّدتُ وأمي أن تتحدثَ كلٌّ منّا بما يشغلها ونتحدث معًا كصديقتين حميمتين، وهذا ما يربطني بأمي أكثر من الأمومة وأكثر من الصداقة - رغم عمري الصغير الذيلم يتجاوز التاسعة عشر- هكذا عودتني؛ لأكونَ قريبةً منها دائمًا وأحكي لها كل ما يحدث معي.

قلتُ لها:- حالًابمجرد أن أُغيّرَ ملابسي وأغسلَ يديّ سأتيك فورًا.

وجلسنا نتناول الغداء وأنا شاردةٌ لأول مرة، أشعر أني لا أستطيع الحديث عمّا يسكن داخليويحدث معي كما تعودت سابقا قبل معرفتي بك.

كنتُ أُخبرُ أُمي بكلِّ مايحدث معي وأنا سعيدة، ولكن اليوم أشعر أنّ شيئًاتغيَّربيننا أو بالنسبة لي على الأقل،وأنّ شيئًا لن يُقال الآن ولن أستطيع مشاركةَ أحدٍ به، إنه خاصٌّ بي وحدي.

لاحظت أُمِّي شرودي، وأعادت سؤالها:

- حنان ماذا بكِ؟

قلتُ لها مُرتبكةً: لا شيءَ مطلقًا، وعدتُ صديقةً على العشاء في السادسة، وأشعر أني لستُ راغبةً بذلك ولا أستطيع الاعتذار، هذا ما يشغلني.

استغربتُ من نفسي، كيف أصبحتُ كاذبةً!.. أكذب على أُمِّيٍ لأوّلِ مرة، لماذا؟!

قالت:- أهذا هو سببُ شرودِك وسرحانك من وقتِ وصولك المنزل؟

قلتُ:- لا أعرف، مزاجي اليوم ليس تمامًا.

لا أعرف إن كانت أمي قد اقتنعتْ بما ذكرتُه لها، أم صمتت لأنها عرفت

أنني لن أخبرها بالسبب، ولأنها أمي، ولأنها أقرب إنسانة لي، ولأني أعرفها كما تعرفني؛شعرتُ أنني أخدعها لأول مرة, وأنا لم أتعوّد على ذلك معها. كرهتُ نفسي بصمتٍ، كرهتُ ما أفعل.

ألسنا هكذاعندما تصادفُنا أولُّ قصةِ حبٍّ بحياتنا، أو نشعر أنّ الحبَّ يطرق بابَ قلوبنا الصغيرة، نبدأ في إخفاءالكثير من مشاعرنا عن أقرب الناس لنا وخاصةً أهالينا، والدنيا!

كم سألتُ نفسي لماذا، لماذا لم أصارحها بكلِّ شيءٍ كما كنتُ أفعلُ، كما تعوّدنا وعودتنا وتربينا على ذلك؟!

وجاءت السادسة... اهتممتُ بنفسي أكثرَ من العادة وأكثرَ ممّا يجب.

رأتني أمي وأحسّت أنّ بحياتي شيئًا غيّرني وشغلني. التزمتُ الصمت، لم أتفوّه بكلمة. جملة واحدة قالتها:- اجعلي نهايةَ يومك مقنعةً؛ لتكوني سعيدةً وراضيةً!

أنْ أجعل نهاية يومي مقنعة.. وأنا مَن يقنعني بما أفعل، وإلى أيّ طريقٍ مسدودٍ أسير؟

هكذا هي أمي، كلُّ كلمةٍ تقولها تعرف لماذا تقولها، وأين تضعها؛ ليكونَ

وَقْعُها كما تريد. أخيرًا خرجتُ من المنزل، وتخلّصتُ مِن أُمّي واكتشافاتها السرية لي، أخذتُ طريقي إلى حيث كان اللقاء.

وصلنا معًا وكأنّ واحدنا يسبق الآخر؛ ليكونَ توقيتُ وصولنا واحدًا.

أهو اندفاعُ الشبابِ وطيش المراهقة؟!

جلسنا لأولِ مرةٍ وجهًا لوجهٍ وبعيدًا عن كلِّ مَن عَرَفنا في مكانِ العمل، لأولِ مرةٍ عَرَفْتُ جمالَ عينيكَ ولونَهما الذي يشبه لون عيوني، أو أنني أرى عيوني في صفاءِ عينيك، أو ذلك الشعاع الذي كان فيهما يشدني إليك و يجعلني أرى ذلك!

عشقتُ عيونَك، عشقتُ نظراتِك والرموشَ السوداءَ التي تُظلِّلُ تلك العيون وتعطيهما بريقًا غريبًا؛ ليزيدَ من جمالهما وسامةً وجاذبيةً.

عرفتُ وقتها لماذا الزميلات يحاولن لفتَ انتباهك لأحدٍ غيري، لأولِ مرةٍ عرفتُ أنك شاب وسيمٌ ولك جاذبيةٌ خاصةٌ.

أيمكن لأني ما زلتُ طفلةً بعفويتي الكبيرةلأن أكبر ويكون لي علاقةٌ مع شابٍّ؟! بهرتُ بك ذلك اليوم، ولأنك أولُ شابٍّ ألتقيه بخياري وقراري، فكلُّ شيءٍ كان غريبًا عليّ وأنا أعيشُ هذه المغامرة وحدي.

أجل، كانت مغامرةً بالنسبة لي، مغامرةٌ متّي أن أفعل كلَّ ما فعلتُ وأخرجَ معك وحدي، وأتركَلتلك لمشاعر العنانَ لتحركني، تجتاحني، لتسكنني،... تجتاحني، وتملأ كِياني، وتجرفني دونَ تفكيرٍ لما أفعل، كأنني لستُ أنا، وكأنّ العمرَ جرى بي سريعًا لأقطعَ سنواتٍ منه.

ماذا هو الذي نسميه حبًّا؟

نستبيحه تحت كلِّ المُسمياتِ لنبررَ لأنفسنا صوابَ ما نفعله. أخذت تنظرُ إليّ وكأنك ترى لوحةً جميلةً لا تعرف كيف ومِن أين تبدألمسها، أو تخاف أن تلمسَها ولو همسًا بالكلام، فتفقد شيئًا مِن حقيقة جمالها، وحقيقةِ أنني معك في مكانٍ واحد، وأنك أخيرًا ستصلُ لما تريد.

بدأتُ الحديث وأنا أنظرُ إلى قميصِكَ، فَتْحَةُ قميصِكَ تخبّئُ بينها بشرةً سمراءَ يكسوها شعرُ صدرِكَ المليءُ بالرجولةِ.أحسّستُ أنّ شيئًا يشدني إليك، أنت تتكلّم وأنا أسمع ولا أسمع، ولا أعرف سوى أنني أتوه بما اكتشفه من ملامحكَ الجميلة والوسيمة. أنت أمامي كلَّ يومٍ ثمانيَ ساعاتٍ متواصلةًلم أراك كما أراك اليوم، كأنك لست أنت، وكأني لست أنا! لكنني أراك اليومَ كما لم أرك في الأيام الطويلة الماضية! انتبهتُ إليك من سرحاني وأنت تقول: حنان أزعجك كلامي، أو أنك ترفضين ما أطلبه وأحسه تجاهك منذ مدة؟

سألتُك: ماذا؟

قلتَ لي: يبدو أنك لست معي أبدًا.

استدركتِ قائلة: لا أبدًا معكَ، ولكن...

قلتَ:- ماذا إذًا؟

تابعتَ:- حنان، أنا من أول لقاءٍ لنا، أتذكرين ذلك اللقاء؟

ابتسمتُ وأنا أقول نعم، نعم أذكر. كيف أنسى؟! مهما حاولتُ لا أستطيع، فرائحة عطرك ما زالت تَسْحَرَنِي، لتأخذني كلَّ يومٍ إلى ذلك اللقاء.

وسألتني مرة ثانية:- أتوافقينيعلما أقول؟

قلتُ لك:- لا أعرف، فاجأتني بكل ما ذكرت.

قلتَ:- أنك تريد أن تقترب مني أكثر, وأنك فكرتَ كثيرًا ووصلتَإلى أنه يجب أن تأخذَ موعدًا من أهلي.

سألتُكَ:- لماذا؟ وبهذه السرعة؟ ابتسمتَ قائلًا:- أيُّ سرعةٍ! طوال الفترة الماضية وأنا معك في كل مكان في العمل، تتنقلينَ أمامي وخارج العمل. كم

مرة ذهبتُ لأقفَ أمام منزلك وتحت الشجرة المقابلة على رصيف الشارع الثاني، كم جلستُ مع السمانِ وسألتُه عنك وعن أهلك, بما أنه جارٌ لكم والجيران يعرفونعن بعضهم أكثرَ ممّا يعرفه الآخرون، حتى الأهل أحيانًا.

وأخبرتَني عن أمور حدثت معك وأنك كنت تراني وتراقبني، ليس من باب المراقبةِ أكثر مما هو شوق لمعرفتي، شوقٌلمعرفةِ المزيد بعد أن أصبحتَ متلهفًا لتعرفَ كلَّ شيءٍ عنّي.

عرفتَ أنني وحيدةُ أمي وأخي أيضًا، وأنّ أبي متوفى من مدةٍقصيرة، عرفتَ أيضًا أين تعمل أُمّي وأنها مديرةُ مدرسةِ ثانوية.

سألتني عن أخي وعلاقتي به. ذكرت لك أن سامي هو أخي الوحيد وأنني وهو كالتوأم، وأمي هي الصديقة الوحيدة والقريبة لنا، والأكثر قربًا، هي الأم والأب وكلُّ شيءٍ بالنسبة لنا، وأننا عائلةٌ مترابطةٌ بشكلٍ غيرِ عاديّ. أدهشني ما ذكرتَه لي، بل فاجأني أنك بحثتَ ودققتَ وعرفتَ عنّي كلَّ هذا، وأنا لا أعرف. آهٍ لتلك الأيام، أذكرُها اليومَ وأنا أعودُ إلى أرضِ الوطن بعد غُربةٍ طويلة. تُرى هل تُراك تذكرني بعد ذلك الفراقِ الذي أَخَذَ كلَّ واحدٍ منّافي طريقمختلفٍ عن الآخر وبَاعَدَ بيننا، أهو القدر، أم ماذا هو؟!

أعود اليوم وليس في مخيلتي وذاكرتي أحدًا سواكَ.كنتُ أعتقد وقتها أنك وحدك مَن أحببتُ ومن عَشِقَتْهُ روحي، وتقدمت لخطبتي وجئتَ لزيارتنا، وأستقبلك أخي وأمي. اعتذرتَ عن أهلك في البداية، وبعدها ذكرتَ لي أنهم لا يستطيعون الحضورَ وعذرُهم لم توضحه، بقي غامضًا كما قالت أمي كغموضِ أشياءٍ كثيرةٍ عنك عرفتُها مع الأيام القادمة!

طَلَبَ أخي سامي أن تعطيَه فرصةً وبعدها يردُّ عليك. بنظرةٍ إلى أمي عَرَفَ أنّ ذلك ما تودُّ قولَه لك!

كنا نحن الثلاثة، نفهم بعضَنا من النظراتِ وبدونِ كلامٍ. عرفتُ أنّ أُمِّي غير موافقة. ليس أنت مَن تريده وتحلُمُ به زوجًا لي. كان لها نظرةٌ منطقيةٌ صائبةٌ، كلُّ شيءٍ له تحليلٌ عندها.أعرفها، إنها أمي.

بعد مغادرتك وانتهاء زيارتك لنا، سألتُ أُمِّي لماذا؟

سامي أَخَذَ الصمت، بوجود أمي ليس له كلام!

وجاءني صوتُ أمي غاضبًا، هادئًا، مختلطةً فيه كلُّ النبراتِ والانفعالاتِ مِن الصدمة التي تلقتها.

- لماذا،ل ماذا ياحنان لم تُخبريني عن تلك العلاقة؟ لماذا لم تقولي أنّ

أحدهم يثير اهتمامك ومعجبٌ بك، وأنك معجبةٌ به؟ ستقولين أنه أمرٌ طبيعيٌّ ، أجل طبيعي، ولكن غيرَالطبيعيّ أننا فوجئنا بما حَدَث اليوم، ولم نناقش الأمر بيننا من قبل كما تعودنا، أليس كذلك؟

قلتُ لها: نعم أمي معك حق، ولكن لماذا الرفض؟ أريد أن أعرف السبب.

قالت: وتسألين لماذا الرفض؟!سنسأل عنه، لا يمكن أن نعطيه جوابًا وكلمةَ موافقةٍ أوغيرها قبل أن نسأل عنه.

التفتتْإلى سامي متابعةً:

-أليس كذلك؟ وسامي سيسأل عنه، وأنا أيضًا من خلال عملي ومعارفي وأصدقائي.

قلتُ لها: أمي، لماذا أنت قاسية معي هكذا؟! لَمْ أَرَكِ في أيّ يومٍ مضى كما أنت اليوم، أيحتاج الموضوع إلى كلّ هذا؟!

استغربتْ وقالت: لأنك طفلةٌ ما زلتِ يا حنان، ولأن هذا الموضوعَ يَخُصُّ حياةَ ابنتي الوحيدة، أتعرفين ما يعنيه ذلك؟

وانتهى الموضوع والنقاش فيه على هذه النهاية.

عرفتُ أنّ أمي لن توافق أبدًا، ذلك أعطاني نوعًا من الإحباط.

بعد عودتي من عملي إلى المنزل في اليوم الثاني التقيت بأمي وأخي على الغداء كالعادة.

قالت أمي:- حنان، لماذا لم يأتِ ناجي بأهله البارحة؟

قلتُ لها:- لا أعرف.

سألتْ:- ألم تستغربي عدمَ مجيئهم في مثل هذا اليومِ المهمِ بالنسبة لحياة ابنهم؟

قلتُ لها:- أجل استغربتُ وتساءلتُ.

استغربتْ بدورها وقالت:- لماذا إذًا تتسائلين عن سببِ القرار الذي أخذتُه؟

في يومٍ آخر عند لقائنا في العمل.

سألتَني ونحن نشرب القهوة:- ماذا حصل؟

أخبرتُك أنّ الموضوعَ متروكٌ فيه القرار لأمي وأخي.

حاولتُ أنْ أعرفَ منك سببًا لعدم مجيء أهلك، أخبرتني أنك أخذتَ

قرارَ زيارتنا لتتعرفَ على أهلي، وتعرفَ مدى القبول أو الرفض قبل أن تُخبرَ أهلك.

أزعجني هذا أيضًا.لستُ أدري لماذا جاءني إحساس بأنك تُخبِئ شيئًا ما، وأنك لستَ صريحًا معي بما يخصُّ موضوعَ أهلك.

قلتَ أنك ستخبرني لاحقًا، وهذا لم يعجبني أيضًا.

انتهى الدوامُ وانتهى الحديثُ بيننا دونَ أيّةِ نتيجةٍ لما سألتُكَ عنه وكان يهمني جدًّا.

وصلتُ المنزل....التقيتُ أمي وأخي على الغداء لا مفرَّ من ذلك مهما اعتزلتُ في غرفتي، سأخرجُ لأواجه ما ينتظرني ممّا جدّ معهم.

وانتهينا من الغداء بصمتٍ لم يتطرق أحدُنا للحديث عن الموضوع.

ولما انتقلنا لغرفةِ الجلوس لنشربَ القهوةَ كالعادة. ونشاهد الJ VTوما يحدث من احتلال وتشريدٍ وتهجيرٍ وقصفٍ ودمارٍفي فلسطين وغزة.

التفتتْ أمي إليّ قائلةً:- ما أعرفه عن الفلسطينيين تمسُّكُهم ببعضهم حتى في الزواج، فهوعندهم مجموعةُ روابطَ عائليةٍ وقوميةٍ مهمةٍ، لا يأخذ الفلسطينيُّ إلا فلسطينيةً، وأيضًا بالنسبة للفتاةِ هذا أمر مهم بالنسبة لهم،

ولا أعتقد أنه سهلٌ على أيّ شابٍّ أو فتاةٍ الارتباطَ بغير فلسطيني أو فلسطينية، أيُّ عائلةٍ فلسطينية تُفضِّلُ- ولن أجزمَ حتى لا أكون متشددة لما أرى وأسمع- ذلك حفاظًا على الجنسية الفلسطينية والشعب الفلسطيني وامتداده لإعادة الأرض، هذا ما اعتقده لعدم مجيء أهلِ ناجي معه، هذا إذا كان قد أخبرهم أصلًا.

لننتظرَ ونرى ونسمع.

أفهمتني بطريقةٍ ما أنها لا تُفضِّلُ، وليست مرتاحةً لهذا الزواج، وأنني ما زلتُ صغيرةً، وهي لا تريد لي هذا النوع من الزواج، الغربة والسفر بعيدًا عنها وأنا وحيدتهالا يمكن.

قلتُ لها: إنّ كلَّ ما ذكرتِه ليس سببًا مقنعًا لرفضِ ناجي أبدًابالنسبة لي.

لم ينتهِ الحديثُ بيننا على موضوعٍ نتيجتُه عقيمةٌ, وبقيتْ معلقةً...

أخذتُ موقفًا من كلِآرائهم بأنهم ضدي، هذا الإحساس كان يتعبني.

أُمِّي وأخي، إنهم لا يفهمونني ولا يحسون بي أبدًا ولا يحترمون قناعاتي وخياري لمستقبلي سامي أخي مازال يتابعُ نشرةَ الإخبار على الجزيرةِكعادته بعد الغداء ببرودٍ كاد يقتلني.بالتأكيد هو يسمع حوارَنا ويوافق أمي.

في الغد....كالعادة التقينا في العمل مع قهوة الصباح، ولكن أصبح بيننا حديثٌ، حديث مهمٌ يخصنا نحن الاثنين.

سألتُك إن كنتَ قد أخبرتَ أهلك وطلبتُ منك أن تقول صراحةً رأيَهم بارتباطنا. قلتَ:- بعد صمتٍ وتفكيرٍ طويلٍ منك، إنهم يفضلون أن ترتبطَ بإحدى بناتِ عمِّكَ، أو خالك، أو عمتك، أو خالتك،أي من العائلة وليس من خارج العائلة.

لم تخبرني صراحةً هُويّة وجنسيةَ مَن سترتبط بها، ولكنني فهمتُ. تأثرتُ كثيرًا, ولم ألمحأو أرى منك أيَّ تعبيرٍ واضحٍلرفضِ أو قبولِ ما ذكرتُه.

أوهمتَني أنك متأثرٌ بعد أن رأيتَ ردةَ فعلي، وأخبرتني أنك بعمرٍ يسمح لك بأخذِالقرار الذي

يخصك وحدك للإنسانةالتي ستختارها شريكةً لحياتك, وأننا بزمنٍ يختلف تمامًا بتفكيره عن تفكيرِ والديك أو الأجيال الماضية , مع العلم أن أهالينا ليسوا من الزمن الماضي البعيد جدًّا، لكن القضيةَ قضيةُ وطنٍ ومصيرُ الشعب لهذا الوطن.قوميتنا لا تحتاج إلى زمنٍ لنكونَ قوميّين أو وطنيّين. وأعتقد أنني لم أفهم؛ لأنك لم توضح لي الشيءَ المهم بالنسبة للقضية المهمة لديكم،مع ذلك تابعتُ معك ولا أعرف لماذا!

عدتُ إلى المنزل وكلُّ ما يشغلني هذا الموضوعُ بشكل عام. فاجأني موقفُ أهلِكَ، وفاجأتني أكثرَ تلك القراراتُ. إن الزواج بين أبناء دولتين عربيتين غيرُ مرغوبٍفيه، لكنني كنتُ أصغرَ من أن أفهمَ أوأستوعبَ ما يحدث، ذكّرني ذلك بحادثةٍ شغلت تفكيري لفترةٍ من الوقت: كان لنا جارةٌ فلسطينيةٌ تسكن الطابقَ الأول من العمارة التي نسكنها،وما زالتفريدةُ جارتَنا الأقربَ والأحبَّ إليّ، جاءت لأمي ذاتَ يومٍ وهي تبكي ومعها طفلتُها الصغيرةُ التي لم تتجاوز السنة من العمر، كم حزنت أمي عليها حين جاءتها شاكيةً باكيةً من زوجها وعلاقاتِه النسائيةِ الكثيرةِ، وأنها ذات مرةٍ عَلِمَتْ من فاعلِ خيرٍ كما أخبرها عند اتصالِه بها أنّ زوجَها تزوّج من سكرتيرتِهِ السوريّةِ الحسناء الصغيرة؛ أذكر تمامًا كيف جُنّ جُنونها وهي تحكي لنا وتبكي بأنها لن تعود إليه بعد اليوم مهما فعل، وأنها ستبقى معنا ريثما تخبرُ أهلَها وتذهب إليهم، لولا أمي الحكيمة العاقلة التي هدأت من جنونها وانفعالها الشديد وطلبتْ منهاأن تنتبه لأولادها ولهذه الطفلة التي تحتاجها، وبيتها الذي لن يكون بدونها لتعتبرَ أنّ ما سمعته نزوةٌ عابرةٌ ويعود بعدها إليها والى أولادها، ربما يكون كلُّ ما سمعتْهُ من فاعلِ الخيرِ كَذِبٌ وغيرُ صحيحٍ. مسحت دموعها وهدأت عصبيتها وعادت إلى بيتهاوأولادها. مضت أيامٌ لا بأس بها بعدها جاءت فريدةُ لزيارتنا كعادتها، لكنها هذه المرةُ ضاحكةً مستبشرةً شاكرةً لأمي ما فعلته معها.ضحكةٌ كبيرةٌ مرسومةٌ

على وجهها البسيطِ الذي يُصدِّقُ كلَّ ما يقال، جاءت لتخبرنا أنها عملت بالنصيحة، عادت لزوجها ولكنها أيضًا صارحت زوجَها بما سمعته من فاعل الخير. قالت:- أنه أخبرها بأنْ ما سمعته هو افتراءٌ عليه وعلى نجاحاته، وأن منافسيه في السوق هم من يروِّجون تلك الإشاعات، وأن ظفر أصغر أولاده بكل النساء ما عدا الفلسطسنيات.

ولأن الكلامَ عن سكرتيرته السورية الجنسية هم يتكلمون بأنّ علاقةً تربطه معها، واليوم العلاقة أصبحت زواجًا، هذا حقدٌ عليه وكُرْهٌ من منافسيه.

حَزِنَتْ أمي على فريدةَ وعلى هذا الرجل الذي كان قد تزوّج فعلًا من سكرتيرته السورية، حزنُها كان لكل هذا التشويه الذي تعمده الرجل؛ ليضحك على هذه الزوجة الساذجة البسيطة، والمسكينة صدقتْهُ.. صدقته بطيبتها، وردّت لنفسها اعتبارَها المهزومَ والمكسورَأمامنا، وأمامَ نفسِها أوّلًا.

كنتُ سأقولُ لها أنْ ليس للسورية ولا الفلسطينية أيَّ فرقٍ أو تبريرٍ لذلك، الخيانةُ خيانةٌ، ولكنّ أمي منعتني. وقالت لي: حنان ليس لنا أيّة علاقة، كُلُّ ما يهمنا أن تعود لزوجها وبيتها وأطفالهايكفي التشريدُ الذي هم فيه، يكفي تشريدُ الوطن، أيضًا تشريد العائلة والأطفال.

لا ...لا يمكن .... هذه هي أمي حبيبتيوهذا أيضًا ما منعني من البوح لها في ذلك الوقت بكل ما فعله زوجُها بها من كذبٍ وخداعٍ.

تأثرتُ من تلك القصة التي حدثت مع فريدة زمان، ولكنني لم أتعلم منها شيئًا اليوم رغم أن تلك الحادثةَ تركتْ أثرًا سيئًاليس على الرجالِ فقط، بل على كلِّ مَن يستغلُ قوميتَه ووطنيته لأسبابٍ تافهةٍ تجاه قضيةٍ خاصةٍ.

شكرتُ ذاكرتي؛ لأنها أعادت إليّ تلك القصة، سألت أمي إن كانت متأثرةً بما حدث لجارتنا مع زوجها؟

ردّت قائلةً: ربما.. فما حدث لها ليس سهلًا، وكلنا تأثرنا لها. في المساء ذهبتُ لفريدةَ أخذتُ معها فنجانَ قهوةٍ ودَرْدَشْنَا عن أمورٍ كثيرةٍ، علمتُ منها أنّ الأهل يفضلون لأولادهم الزواجَ من فلسطينية للتسلية لا يهم, وعرفت أيضًا أنّ الشابَّ الفلسطينيَّ لو تزوّج من غير فلسطينية، فإنه سيعود لاحقًا ومهما طال الزمن؛ ليتزوج من فلسطينية مات عنها زوجُها أو تأخّرت في الزواج, وأنه لا يمكن للفلسطيني أن يطلقَ زوجتَه الفلسطينية مهما حصل بينهم من خلافات!

تساءلتُ أيمكن هذا؟! ياه.. كلُّ هذا وناجي صامتٌ ويأتي ليطلبني للزواج،على أيّ أساسٍ؟!

أجل، فاجأني ما سمعتُ، ولكنّ الأغربَ أنّ جارتَنا البسيطةَ أحسّت أن وراء أسئلتيالكثيرة موضوعُ زواجٍ! عدنا نلتقي من جديد، وكل ما حدث وما سمعته وتاثرت به لم يكن سببًا ليبعدني عنكخاصةً عندما طلبتَ منّي أنْ لا نقفَ مكتوفي الأيدي أمامَ حُبّنابعد معرفتِكَ أنّ أمي وأخي رفضوا هذا الزواج.

قلتَ لي: لنخطب بعضنَا من بعضٍ، وننتظر حتى تأخذَ فيزا لأمريكا عن طريق الهجرة، وأن لك شقيقًا هناك سيساعدك بذلك.

طلبتُ منكأنْ تحاول مرةً أخرى، وتقنعهم بإصرارك على الزواج منّي، أخبرتني أنْ لا فائدةَ مِن إعادةِ المحاولة وأنك تعرفهم وتفهمهم.

واكتشفت أنني وحدي التي لم أفهم، كان كلام أمي صحيحًا.. وأنا التي لم آخُذْ كلَّ هذه الاعتبارات لأنسحبَ وأنهيَ هذه القصةَ التي لم تبدأ بعد.

ولكنّ الأيامَ تابعت مسيرَها ونحن نسير معها،عدتَ وطلبتَ أن نتزوجَ وبدون أن نعلم أحدًا، أنت وأنا فقط كالزواج العُرفيّ، أيضًا رفضت وبشدةٍ.

لا يمكن أن أتصرفَ أو أفعلَ شيئًا كهذا أبدًا،لم أوافقك.والأغرب أننا لم نفترق، وأنني لم أبتعد، ولا أعرفُ إلى أين أسيرُ معك والطريقُ مسدودٌ. تركنا موضوعَ الزواجِ والخطبةِ وتابعنا،كُنّا نلتقي باستمرارٍ، ومكتبك في

الصالحية كان يجمعنا عندما أكونُ هناك للتسوق أمُرُّ عليك ونأخذ بعضَنا ونذهب للغداء أو للعشاء بأحد المطاعم التي تعوّدتْ علينا وعلى وجودِنا أكثرَ الأحيان.

ذلك الريستراند كم أمضينا فيه أمسياتٍ قرّبتنا من بعضنا أكثر في كل لقاءٍ جمعنا، وأصبحَ لحياتي معنًى آخرَ برغم الفراغِ الكبيرِ الذي يدور بداخلي كدوّامة ليس لها قرارٌ وأساسٌ تستند عليه، أصبحتُ ضائعةً أتمسك بوهمٍ وحبٍّ غيرِ موجودٍ عندك ولا تحسُّ به، أهو التمردُ بداخلي على موقف أمي رغم صحةِ موقفها وخوفِها عليّ؟

لا أعرف، ولكنّ شيئًا واحدًا عرفتُه أنّ حياتي أصبحت مليئةً، ليس لديّ وقتٌ: دراسة، عمل، وحبّ، أو علاقة حب غير معروف تفاصيلها، أوحتى بداية أو نهاية لها! فقط اهتمام من رجلٍ توهمّت أني أحبُّه وصدّقتُ حبَّه المزعومَ.. علاقة عشوائية،هي انجذابٌ، أو إثباتُ وجودٍ، أو شيءٌ من هذا، أو احتجاجٌ ورفضٌ لفراغٍ بداخلي!

كنا نودّع بعضَنا آخرَ الدوام مختلفين على أمورٍ كثيرة؛ لنعودَ ونلتقيَ بشوقِ صباحِ اليوم التالي في العمل.

كم أحببتُ قهوةَ الصباحِ وأنا أسمع فيروزَالتي رافقتني مشوار حياتي

الصباحي بكلِّ التغيرات والتبديلات، هي الوحيدة التي كانت ثابتةً بحياتي كلَّ صباحٍ مع قهوة الصباح.

هناك مثلًا يقول: "لِتعرفَ إنسانًا، أَبْحِرْ بأعماقه، أُدخُلْ سراديبَ قلبِه وخزائنَ نفسِه ودهاليز العتمة بين شرايين نبضه، تعمّق وانظر للداخل لتراه بصورةٍ أوضحَ." وأنا لم أفعل ذلك كنتُ منبهرة بك، وبحبٍّ أوهمتُ نفسي به.

صغيرةً كنت على كلِّ ما مرّ بي معك، تفاصيلُ صغيرةٌ منك تُبهرني، انتظارك لي لنشربَ قهوتنا معًا يعزّزُ بداخلي نوعيةً مختلفةً من الاهتمام كأن شيئًا يربطنا، كأنه التعودُ!فالعادة أكثرُ الأحيان تغشُّنا في عواطفنا حين نعتقدُ أنّ شيئًا ما لا نستطيع التخّلي عنه والعيشَ بدونه، فيكون التعودُ هو الذي يعطينا ذلك الإحساس والانطباع الخاطئ كما التدخين إذا تعوّدنا عليه شعرنا أننا لا نستطيع الإقلاع عنه، إنه نوعٌ من السيطرة على داخلِ الجسد كما أن هناك شبابًا يدمنون على ممارسات التغيير من الخارج للسيطرة على قشرة الجسد كالعمليات الجراحية وثقب الجسد في أيّ منطقةٍ منه كالأذن والأنف وبناءالعضلات، كلُّها أنواعٌ من التغيير للجسد وكله بالنهاية إدمانٌ، وهكذا أصبحت!

مدمنةٌ على وجودك بحياتي، ترتبط بيومياتي وليس بي. مراتٌ كثيرةٌ كنا

نذهبُ لنمضي بقية من نهارٍ جميلٍ معًا وأيدينا بأيدي بعضٍ متشابكةٍ، ونحن نحلُم بالسفرِإلى أمريكا، وأخوك رامي سيرسل لك طلبًا؛ لتسافر إليه، وتطلبني لأحلقَ بك حيث أنت.

كنتَ تُخبرني بهذه التفاصيل والتطورات الصغيرة بالنسبة لي وربما كبيرة كانت؛ لأنها نوعٌ آخرٌ من الاهتمام، فهل ياتُرى كانت صحيحةً؟

كم حلمنا وحلمنا، وهذه الأحلامُ كان تُعطيك الحقَّ، لأن تغارَ عليَّ، تطلب منّي ذلك، وترفض ذاك.

أتساءل اليوم، كيف استطعتَ احتجازي لك وحدك ضمن كل هذه الخُروقاتِ لقانونِ حياتي حتى أني لم أعدْ أرى أحدًاغيرَك، ولا أُميّزُ بين الصح و الخطأ، وبعدها خدعتني، رحلتَ عنّي، تركتني لغدرِكَ وغرورِكَ المُزيّفِ!

كم حاولتْ أمي إقناعي بأنّ علاقتَنا ليست صحيحةً ولا متكاملةً ولن تكون، وأنك لستَ الرجلَ الذي يمكن أن يكون زوجًا لي لتدخلَ حياتَنا، ولكن دون جدوى!.. اعتقادي بأنني أحبُكَ أو أنني أحببتُ هذاالنوعَ من الإدمانِ والتعوُّد عليك لوجودك بحياتي، ولضعفي... لضعفي لم أستطع التخلصَ منكَ ومن كلَّ العاداتِ التي ربطتني بك،وللتخلصِ منك ومنها

كان عليّ أنَ أكتسب الجديدَ، وأبعدَ عنك لأرى كلَّ مَن حولي.

أمضينا أوقاتًا طويلةً معًا، سافرنا إلى طرطوس واللاذقية، وتمتّعنا بالطبيعة وسحرها، وحكاياتِ البحر في ليالي الصيف الجميلة الساحرة، وأنا أعرف بأن كل ذلك غلطٌ كبيرٌ أتصرفه، ربما كان نوعًامن التحدي؛ لأكسرَ شيئًا بداخلي تعوّدت عليه.

كنا نقوم برحلاتٍ جماعيةٍ ونشارك بها بعضَ الزملاء والأصدقاء، كنتُ مبهورةً بكلّ ذلك.ضحكنا معًا وبكينا معًا، وتعوّدنا أن نكونَ مع أصدقائنا وزملائنا بالعمل ومن غير العمل، نجتمعُ مرّاتٍ كثيرةً، والكلُّ أصبحَ يعرف أنّ حنان وناجي في طريقهما للزواج..رغم أن كثيرًا ما سعى الفضوليون لقطع هذه العلاقة بيننا وحاولوا أكثر انتزاع واحدنا من الآخر.

أكانت تلك غيرةً وقتَها، أم توعيةً ولفتَ انتباهٍ لي وتوضيحًا لِمَا حَدَثَ معنا في النهاية أنك لستَ المناسبَ لي وليس العكس أبدًا!

حذّرتني مراتٍ وأنت تقول لي: احترسي من تلك، ومن هذا وذاك..

كان الأكثر متعة لنا عندما نذهب لحديقةِ المتحف أو حديقة الجاحظ ونمشي معًا بين الأشجار،نجلس حينًا ونتابع المسير حينًا آخر مستمتعين بحفيفِ الأشجارِ عند الغروب،نحتسي الشاي الساخنَ، وتأخذنا الحكايا

والأحاديثُ الكثيرةُ، ولا نشعربأنّ الوقتَ مَضَى فنعودُ معًا، توصلنيوتعود بعدها إلى منزلك.

أصبح لنا أماكنُنا التي تخصُّنا وحدنا، أماكنُ مثل أماكن القلبِ تعوّدنا عليها لِتَعَوُّدِنَا على بعضِنا فَخَضَنَتْنَا، وأماكنُ رَفَضَتْنَا كما نرفضُ وجودَ الكثيرين من الناس بحياتنا ولا نهتم لهم أبدًا؛ لأنهم خارجَ دائرةِالقلب من اهتماماتنا.

آهٍ من الذكريات!

هاهي نُهَى كعادتها تشدُّنِي إلى الواقع؛ لأعودَ إليها وإلى حياتي وذكرياتي معكَ،لم أعرف تقديري لهذه الذكريات اليوم وألمَها ووَقْعَها عليَّ. وأنا بطريق العودة إلى حبيبتي سوريا، كم اشتقتُ لها، فأولادي بقُربي، وحضني أَلِفَ ابنتي وهي بجانبي، نور عيني.

أنظرُمن نافذةِ الطائرة، مازالتِ الغيومُ تُحيطُ بنا، وما زال الطريقُ طويلًا للوصول.نهى حبيبتي، كم أحببتُ هذا الاسم حين اخترتُه وخالدٌ عند ولادتها،أتأملهاوقلبي وعيوني تَلُفُّها وأشدُّ ضَمّتي لها وهي تحتويني بنظراتِ عينيها الجميلة.

تقول لي: مامي اشتقتُ كثيرًا لأبي، كم ستطول فترةُ إقامتنا بعيدًا عنه؟ نحن لم نبتعد عنه بعد سوى ساعات قليلة والشوق يأخذنا إليه!

أرد عليها: لأننا لم نتعد السفر وهو ليس معنا، ولكن شوقي لأمي وأخي وبلدي يزداد يومًا بعد يومٍ. يانهى ياحبيبتي، ستحبين هذه البلد وأهلها لن تنسي أهلك فيها الكل ينتظر وصولنا بعد غيابِ سنواتٍ ليست قليلةً.

ردّت كعادتها: أمي أنا وُلدت في لندن، ولم أغادرها من فترةٍ طويلة، كنتُ صغيرةً جدًّا عندما ذهبنا آخر مرةٍ، والآن كبُرت ثلاثَ سنواتٍ زيادة. مامي،أنا لا أذكر سوى القليل.

ضَمَمْتُها إليّ أكثرَ رغم أنها أصبحت لذيذةً هادئةً، تُذكّرني بنفسي وأنا بعمرها، إنها قطعةٌ منّي، إنها روحي وحياتي.

أخذتْ من والدها الذكاءَ والحكمةَ والفكرَ، وأخذت منّي كلَّ الجمالِ والهدوءِ،ضحكتُها الناعمةُ مثلُها. التفتتْ هيَ إلى وليد ابني الأصغر منها بثلاث سنوات، وأخذت تُدّرْدِشُ معه وهو طَيّعٌ لها بكل تفانٍ وإخلاصٍ لأخته الأكبر منه سنًّا.

كانت علاقةً جميلةً تربطهما، هكذا زرعتُ فيهما الارتباطَ وعدمَ تخلّي الواحد عن الآخر بالحب والاحتياج للرفيق والصديق بين الأخ وأخته.

كان شيئًا من الماضي بين علاقتي وأخي سامي، بُعْدُه عنّي وقُرْبُه الأكثر لأمي،كنتُ أحتاجه قريبًا منّي أكثرَ خاصةً وأنا بعلاقتي مع ناجي وهو

الأكبر سنًّا؛ لذلك كنتُ أسعى لأن يكون أولادي وليد ونهى مرتبطين كصديقين مع بعضهما.

وأخذت نظراتي تحضنهما معًا، كم أحبهم وكم أحب عائلتي الصغيرة وأعتزُّ بها..وليد ونهى، خالد وأنا.

آهٍ خالد.. أنت وحدك من جعلني أصحو من صدمةِ عمري، ولولاك لما كنتُ اليوم أثقُ بأحدٍ حولي، ولما كنتُ خرجتُ من عُزلتي ووحدتي بعد صدمتي بأوَّلِ حبٍّ كان لي مع ناجي.

كلُّ ذلك حَصَلَ وقتها لأنني لم أسمع لرأي أمي وقرارِها عندما رفضتْ ناجي وقالت أنه غيرُ مناسبٍ لي.

مهما كانت أسبابُها فلها الحقُّ عليّ، ومن خلالِ هذا الحقِّ كان يجب عليّ أيضًا أن أسمعَ لها وأطيعَها وأحترمَ قرارَها، ولكنني لم أفعلْ وتمرّدتُ، كنتُ بعمرٍ لم أعرف فيه كيف أسيطر على انفعالاتي المختلطة التي عشتُها تلك الفترة. يا لذكائك أمي! أو أنها فطرةُ الأم لإحساسها الأمومي لأبنائها في الشعور بهم عن بعد أو قرب، كم كنت صادقةً بإحساسك ونظرتك لناجي!

لم تمضِ سنة أو أكثر قليلًا على تلك اللقاءات بيننا والعلاقة التي جمعتنا والتي كنت أعتقد أنها الحب، الحب الذي أسمع عنه ولم أعشعه، ما عشتُه

معك كان وهمًا، كان خداعًا، كان أيَّ شيءٍ إلّا الحب، حبُّكَ صدمني... صدمني عندما سمعت بعض الزملاء يتهامسون بأنكعلى علاقةبإحدى الزميلات معنا بالوزارة.

لم أصدق ماسمعتُ، قلت لنفسي إنه نوعٌ من الغيرة، ولكن يومًا بعد يوم تلقيتُ الصدمةَ الأكبرَ عندما تأكدت أنك على علاقةٍ حقيقيةٍ بمها الموظفة الجديدة، صُعقتُ...لا،لا أعرف كيف تلقيتُ تلك الصدمةَ، وكيف تأكدتُ أنك تذهب معهاإلى أماكنناالخاصة التي تضمُّ كلَّ ذكرياتنا معًا،حتى ذكرياتنا لم تحترمْها!

كلُّ الأماكنِ بالنسبة لك واحدةليس لها أيُّ معنى لديك، كنتَ تهرب مني وتقول أن لديك أشغالًا مع والدك، إلى أن عرفتُ وتأكدتُ بعد أنْ اتصلتْ بي إحدى صديقاتي وقالت لي: أنها شاهدتك تدخل أحدَ الأبنية، ولما أصررتُ عليها لأعرف المكان بالضبط، عرفت أنه مكتبُك عند بوابة الصالحية!

لم أذكر لك شيئًا ممّا سمعتُ وتركتُك لأعرفَ المزيدَ، فالكلُّ أصبحَ لديه الكثيرَ لما يقول. أصبحت لقاءاتُنا نادرةً وقليلةً وباردةً وثقيلةً علينا معًا، كلُّ يومٍ يأتي نبتعدُ أكثرَ بصمتٍ وبدون أيِّ كلامٍ. أكثرُ ما آذاني منك أنني ذاتَ مرةٍ اشتعلَ قلبي نارًا بالشكِّ والغَيرة، أحسستُ أنك تخدعني بأكثرَ

من ذلك، ليس بعلاقةٍ واحدة، ولا فتاةٍ واحدةٍ، عندما سمعتُ أنك أيضًا على علاقةٍ بزوجةِ صديقٍ لناسافر إلي دبي وبقيتْ زوجتُه وأولادُها الثلاثة، وعرفتُ أنك تزورها كلَّ يومٍ من بابِ الاطمئنان؛ لأن زوجَها المسكينَ أوصاك بها.

صُعقتُ..أليس هناك أحدٌ غيرك ليوصيك بها! أين أهلها وأهله؟

كنتَ ذكرتَ لي ذاتَ مرةٍأنها لا تعجبك بشيءٍ، قلتَ لي هذا بدونِ أيِّ سببٍ.

لم يثيرني كلامُك بما كنت تقصده حتى الآن!عرفتُ أكثرَ عندما ذهبتُ والدموعُ تملأ عيوني إلى منزلها الكائن ِعلى الشارع مباشرة، والطابق الأرضي ونافذة مفتوحة على المدخل الأساسي للبناية التي تسكنها تلك السيدة، سمعتُ صوتَك وضحكاتِك مع أولادها (عموه ناجي ...عموه ناجي)، وأنت تقول هذه الهدايا والأغراض جلبتُها لأجلكم؛ لتلعبوا بها في غرفكم.

خنقتني العَبَرَاتُ لم أعدْ أستطيعُ متابعةَ ما قالته تلك السيدةُ والدتُهم لتجلسَ وإياك على انفرادٍ للبحث في أمور السفربعد أن ذكرتَ لهم أن جوازاتِ السفرأصبحتْ جاهزةً وأنكم ستسافرون معًا.

لا أعرف كيف لَمْلَمْتُ نفسي وركضتُ بعيدًا أمشي في شوارعَ دمشق

على غير هدى، لا أعرف إلى أيّ اتجاهٍ أسيرُ والدموع تتساقط من عيوني والمطر ينهمر بغزارةٍ، تمتزج رائحتُه بترابِ الأيام المبللة بقطراتِ الدموع والأسى لكلِّ ما حَصَلَ.

دخلتُ رستراند على الشارع قريبًا من المنزل أحتمي من المطر، أم أحتمي من جروحي ودموعي على عمرٍ أضعتُه معك. جلستُ أُلَمْلِمُ نفسي المبللةَ بالنزفِ والألمِ، وأمسحُ دموعي بصمتٍ، فليس ليسوى الصمتِ بعد كلِّ هذه الجروح.

جاء النادلُ يسأل ماذا أريد، قلتُ له: ورقة وقلم - لو سمحت - وفنجان قهوة سادة وعلبة سجائر من أيّ نوعٍ لا يهم.

ذهب هو وأنا في بحرٍ هائجٍ من العواصف المطحونة، أُلَمْلِمُ كسري ونزفي وجرحي، فجروحي كثيرة.

أن تثقَ بشخصٍ وتتحدّى لأجله أهلك .....لا ...لا ...لا أصدقُ ما سمعتُ، وما رأيتُ، وكل ما نُقِلَ لي سابقًا كان صحيحًا،كنتُ أقول: أن الغيرةَ أحيانًا تجعل الناس حاقدين يتهمون المحبين بالخيانة والغدر لبعضهم؛ لتفشل العلاقةُ بينهم. كنتَ أنت مَن أقنعني بذلك، وللأسف ها أنا اليوم أكتشفُ الخيانةَ والغدرَ منك!لم أعد أصدقُ!

أخذتُ سيجارةً، أشعلتُها وأنا أرشِفُ قهوتي وأرشف الدخانَ معها، أحسستُ كأنني أُشعِل فيها كلَّ حياتي معك وأسحقها رمادًا، أُشعِلُ برمادها ودخانهاالذي كانيتناثر ويتطاير في الفضاء كلَّ أيامي معك،ومع كلِّ نفخةِ هواءٍ أو نَفَسٍ بسيطٍ تنسحبُ من داخلي كما تنسحبُ لفائفُ دخانِ السجائر؛وسطرتُ أوّلَ سطرٍ عن الخيانة، خيانةِ الرجل للمرأة بعد كلِّ الثقةِ والحبّالذي لم يكن سوى وهمٍ وسرابٍ، غالطتُ نفسي كثيرًا دون فائدةٍ. وهكذا قررتُ أنك أصبحتَ رمادًا بحياتي، ونفخةٌ بسيطةٌ منّي اقتلعتك،اقتلعتكَ من كلِّ أيامي وعمري الذي سرقته بخداعك.

جاء يومُ غدٍ، وذهبتُ إلى الوزارة كالعادة، وتصرّفتُ بشكلٍ عاديٍ، أنت أيضًا كنتَ عاديًّا شَرِبْنَا قهوةَ الصباح بصمتِ الغدرِ والخداعِ والخيانةِ المزدوجةِ!!

وبعد انتهاء الدوام كلُّ واحدٍ منّا ذَهَبَ في طريقٍ آخرَ هذه المرة دون أن نلتفتَ وراءنا، لم يعد يجمعنُا شيءٌ، أو حتى تربطناعواطفُ لا نوعَ ولا مادةَ لها، وإن كانت مزيفةً وكاذبةً!

لم يمضِ أسبوعٌ حين سمعتُ أن ناجي سافرَ، وطلب من زميلٍ له تقديمَ طلبِ إجازةٍ بدونِ أجرلثلاثِ سنواتٍ.

أحسستُ أن الصدماتِ عندما تأتي.. تأتي متلاحقة، واحدة تِلْوَ الأخرى. على الرغم من أنني كنتُ أعلم بسفرك قبل موظفي الوزارة هذه المرة، لكنني استغربتُ من نفسي كيف تحمّلت الآلامَ وكلامَ الزميلاتِ والزملاء وتلميحاتهم التي أصبحتْ تتردّدُ بينهم،وتتراود.

ناجي تَرَكَ حنانًا، وسافرَ بعد قصةِ حبٍّ عاصفةٍ دون أن يخبرها.... مَن أخبرهم بذلك؟!

والغريب أن أحدًا لم يسألني مباشرةً عن هذا الموضوع، هكذا هم الناسُ، هكذا هو المجتمع، يثرثرونمِن خلفك ولا يقولون بوجهك، ليس احترامًا لمشاعرك، بل شماتةً لِمَا كان سيحصل بدون رضاهم!

توالت الأيامُ طيلة سنة تقريبًا إلى أنْ مَرِضَتْ أمّي ذات يومٍ ومن خلال مرضِها والأطباء الذين أشرفوا على علاجها لمدة طويلة، كان هناك دكتور خالد طبيبًا متخصصًا بالجراحة العصبية على درجةٍ عاليةٍ من الذكاءوالعلم والثقافة، يعيش أكثرَ أيامِه بلندن، رجلٌ شَارَفَ الأربعين، واثقٌ مِن نفسِه، مَرِحٌ، مهذبٌ، لَبِقٌ؛لا أعرف ما الذي شدّه إلينا، ووضْعُ أمّي ليس اختصاصَه، لكنه أوصى الأطباءَ من خلال مكانته المرموقة، فهو شريكٌ بملكيةِ المَشْفَى بالأسهمِ والإدارة. كان الأطباء يتوافدون باهتمامٍ شديدٍ على صحةِ أمي، وتوصية للممرضات بغرفتها، الدكتور خالد الوحيد الذي أعطى

لأمي كلَّ الاهتمامِ والرعايةِ حتى تمَّ شفاؤها وخروجُها من المَشْفَى.

كم سألتُ نفسي في زحمةِ الأفكار والضغوطِ النفسية التي أنا بها، لماذا كل هذا الاهتمام؟! أهو حزني على أمي وتعلُّقي بها وقلقي عليها، أم هو تعاطفٌ علينا، أم أنه تَعَاطَفَ معها لكونها أمًّا، أم اختلطتِ الأمورُ عليّ بين صدمتي بناجي وحزني على أمي؟

كنتُ وأخي سامي نتناوبُ المبيتَ عندها، رغم إصراري أن أكون وحدي معها؛ لأعطيها أكثرَ ممّا تستحقه منّي .كم كنتُ بحاجةٍ لها، لوجودها، لأنفاسِها، لصوتها، لحضنِها الدافئ... كم أنا بحاجة إليك أمي.

عرفتُ بين كلِّ المحن التي مرتْ وتمرُّ بي أن السعادة شيءٌ نسبيٌّ كامنٌ فينا،لا في الأشياء التي تصادفنا،وعرفتُ أنْ لا شيءَ يعوِّضُ ضياعَ الإنسانِ منّا عن ذاته.

عندما جاء مرضُ أُمّي وأنا بأمسِّ الحاجةِ لضمةِ صدرِها، أبكي وأغسل بدموعي كلَّ أخطائي معها، عرفتُ كيف سلختُ نفسي المحتاجةَ للحنان من صدرِ أمّي، كم تألمت وأتألم إلى اليوم؛ لأني لم أسمع منها، وتمرّدتُ عليها.

كيف أعتذر؟ كيف أعترف؟ كيف أقول لها أن صدمتي بناجي كانت أكبرَ منّي، كسري أكبرُ، وجرحي ينزف ،كيف..؟

آهٍ يا أمي، كم أشعر اليوم - وأنا أُمٌّ - بكلِّ ما كنتِ تحبّيني به وتُعانينه من أجلي في تلك الفترة، وابنتي ستصبح على أعتابِ هذا العمر الذي يُولِّدُ عندي خوفًا كبيرًا عليها وعلى مشاعرها الرقيقةِ الحساسةِ.نهى حبيبتي لا أرضى لها أن تُكسر مشاعرها وأحاسيسها، لا أريد لها أن تمرَّ بعلاقةِ حبٍّ تصدمها بعيدًا عنّي، لا .. لا أريد أن يحدث معها ما حدث معي.

مرت أيامٌ بعدَ شفاءِ أمي رتيبةٌ مملةٌ وطويلةٌ، طويلة بالألمِ والعذابِ، لكنّ مرضَها وتلك المرحلةَ التي مرّت بنا جعلتني ابتعد عن نفسي المعذبةِ، نسيتُ معها كلَّشيءٍ من قصتي مع ناجي.

أخذت أمّي تتعافى شيئًا فشيئًا، كنا على أبوابِ رمضانَ، كم أحب هذا الشهر في مدينتي الحبيبة دمشق، إنه يختلف تمامًا عن كلِّ المدن، له طعمٌ خاصٌّ بكلِّ طقوسِ هذه المدينة ودفئها وجمالها الذي يضفي لهذا الشهرالكريم جمالًا ورونقًا مميزًا.

كنتُ أذهبُ وأمي إلى الجامع الأُمويّ لصلاة التراويح، ونمضي أكثرَ الوقت هناك، نلتقي بأصحابنا، وسامي يكون معنا أغلبَ الأحيانِ، أو يأتي ليأخذنا.. ونعودُ وليلُ دمشق يتلألأ بالمصابيح المضيئة بأنوارٍ غريبة وعجيبة، كيف بمقدورها أن تكون هذه المدينةُ بهذا الجمال والسحر خلال هذا الشهر.

وجاء العيدُ واندمجتُ بمن حولي من الأقارب والأصحاب، غيّرتُ طريقةَ حياتي، ومع توالي الأيام والسنين كان يتسلّلُ خروجُ ناجي من قلبي ومن حياتي شيئًا فشيئًا، كأن أحدًا يقتلعه من قلبي بكلِّ الذكريات والآلامِ خاصةً أنني كرهتُ تصرفَه الأخيرَ بعلاقتِه الأكيدةِ بزوجة صديقه وسفره معها حيث زوجها.

هذا ما كنتُ استغرب له، يا لهذا الزوج المخدوع! كان ذلك بالنسبة لي خيانةً مزدوجةً: خيانتُه لي، وخيانته لصديقه.

هزّني هذا التصرفُ وتلك العلاقةُ والتي ليس فيها أيُّ شكٍّ بعد أن تحدّث الجميع عنها، أحسستُ بقرفٍ واشمئزازٍ، واستغربتُ من نفسي كيف اعتقدتُ يومًاأنني أحببتُ هذا الرجلَ، كيف؟! إنه انبهارُ الفتاةِ بمرحلةِ المراهقةِ، إنه التمرُّدُ، لا أعرف ماذا هو!

عدتُ لعملي بعد كلِّ هذه الأحداث المتلاحقة إلى أنْ كان يوم وأنا بمكتبي ولديّ أعمالٌ كثيرة ومراجعون أحسستُ بإرهاقٍ شديدٍ تمنيتُ لو أُنهِي عملي وأذهبُإلى البيت لأرتاحَ وأنامَ، ولكن هناك عمل لا ينتظر ومراجعون أيضًالا ينتظرون الغد، لم يبقَ سوى معاملةٍ واحدةٍ وشخصٍ واحدٍ أمامي، رفعتُ رأسي من خلال أوراقي لأرى خالدًا.

دكتور خالد! ما الذي أتى به إلى هنا؟ كيف قَصَدَ مكتبي، لم أراه منذ خروجِ أمّي من المَشْفَى وشفائها، لم يكن له أيُّ مكانٍ بذاكرتي بعد مرورِ أكثر من سنتينسوى ما قَدّمَه لنا من مساعدةٍ واهتمامٍ لأمّي، كيف عَرَف مكانَ عملي؟! ربما له عمل أو أيُّ شغلٍ بالوزارة ولَمَحَنِي صدفةً فجَاءَ ليسلمَ عليّ، ليس هناك سوى هذا السبب.

استقبلتُه بترحيبٍ شديدٍ ودهشةٍ سبقتني سائلة إياه:
بماذا يُمكنني أن أخدمك؟ أهلاً بك دكتور خالد.

كنتُ أشعرُ أنني أردُّ له جزءًا بسيطًا من ذوقه ولباقته ومساعدته لنا يومَ مرضِ أمّي، طلبت له فنجان قهوة بعد ترحيبي به، وأخذ مكانه وجلس قُبَالَتِي،انتظرَ ريثما انتهيتُ من عملي وهو يرشف قهوتَه ويتأملني بصمتٍ!

نظراتُه فيها ألفُ حديثٍ وحديث، وألفُ سؤالٍ وسؤال، وانتهى الدوام، وانتهى عملي،

قال:

حنان، أتسمحين لي أن أدعوك لنأخذَ فنجانَ قهوةٍ معًافي مكانٍ هادئٍ تختارين فيه الزمان والمكان،أريد التحدثَ إليك بموضوعٍ مهمٍ بالنسبة لي وربما لك.

لم أعرفْ بماذا أردُّ ولا كيف، ولكني أحسستُ أنه يحمِلُ شيئًا من الوُدِّ لي، نظراته تُوحي بذلك، لا يمكن.. أنا مخطئةٌ أكيد، أنا لستُ مستعدةً لأيِّ علاقةٍ مع أيِّ رجلٍ مهما كان نوعُها.

قلت له: دكتور خالد، الوقتُ متأخرٌ وأنا لم أخبرهم في البيت بأنني سأتأخر.

قال: أتصلي وأخبريهم، أنا بحاجة لساعةٍ من وقتك فقط يا حنان، أريدك أن تسمعيني، ويذكر اسمي أيضًا... حنان!شيءٌ غريبٌ..

أمام تهذيبه، ونضوجه، وعمره، ودهشتي، وافقتُ، اتصلتُ بأمِّي وأخبرتها أنني سأتأخر بعض الوقت.

ذهبنا.. هو اختار المكان في إحدى مطاعمِ دمشق القديمة، وأنا كم أحبُّ هذه الأماكن بدمشق، تأخذني بسحرها لعالمٍ نظيفٍ وصافٍ وهادئٍ يحمل بأجوائه عَبَقَ الماضي ولمساتِ الحاضر.

تساءلتُ:- لماذا وافقتُ دكتور خالد رغم كلِّ ما بداخليمن رفضٍ لأيِّ موضوعٍ من هذا النوع ولأيِّ رجلٍ؟!لم أعد أثقُب أحد أبدًا، ماذا حصل لي؟ أخذتِ الأفكارُ تعج برأسي وأسئلة كثيرة، لماذابعد كلِّ ما حصل معي تُرى ما الموضوع الذي يجعل الدكتور خالد يأتي لزيارتي بمكانِ عملي بعد

كلِّ هذه المدةِ، بعد كلِّ هذه السنين، بعد كل هذا الوقت الذي مضى وهو ليس بوقتٍ قصير، سنتان وأكثر لخروج أمي من المشفى ومعرفته بنا، ألا يزال يذكرنا؟

أسئلةٌ كثيرة، ولكنني أصبحتُ أكثرَ نضجًا، والتجربة أكيد علمتني الكثير،ولم يبقَ على تخرجي سوى أشهر قليلة.

أحسستُ بغُصّةٍ داخل قلبي، ودمعةٍ منعتها أن تأخذ طريقًا لها على صفحة وجهي. لا، لن أبكي، لن أبكي ناجي وجرحه وغدره لي وقد مضى وقتٌ طويل على تلك القصةِ ونسيته تمامًا رغم أن القلب مازال داميًا بنزف الماضي. نسيتُه تمامًا، أمتاكدةٌأنا؟ لكن الأماكن هي التي تأخذنا للذكريات فتؤلمنا الأحداثُ رغم أنها لا تتشابه أبدًا، ولا أريد لها أن تتشابه مهما كانت الأسبابُ، لا أريدها أن تتشابه، ولا أريد للماضي الذي طويت صفحاته كما طويت ناجي من حياتي كلها أن يعود.

أخذتُ مكاني حيث سَحَبَ لي خالدٌ الكرسيَ لأجلسَ عليه بتهذيب يليق به، وجلس هو مقابلٌ لي. نَظَرَ إليّ وكأنه يراني لأول مرةٍ، هو فعلًا يراني لأول مرة، يتأملني، وأنا أكيد أراه لأول مرة، فأنا لا أعرفه ولا أعرف ملامحَ وجهِهِ، ولا حتى شكله، ولا نبرةَ صوته، أنا لم أسمعه، لم يتحدث معي أبدًا، أنا لا أعرفه كما أعرف ناجي وتفاصيلَ ملامحه.

بعد كلِّ هذه المدةِ الطويلة أيضًا بتغيُّرِ ظرفِ الزمان والمكان.كلُّ شيءٍ يختلف اليوم؛لأنّ كلَّ واحدٍ منّا يرى الآخرَ بشكلٍ مختلفٍ عن الماضي، لن أتسرع في الحكم، لم أعد أثقُ بقراراتي ولا بأحدٍ.لأسمعَ أولًا وأعرف ماذا يريد من هذا اللقاء وبعد كلِّ هذاالاهتمام وهذه المدة من الزمن والأحداث التي مرّت بي،هل غيرتني؟ هل صقلتني؟هل منحتني فرصةً أخيرةً لأن أكونَ أنا .. حنان؟ هل محت كلَّ آثارها النفسيةِ التي تركتها بداخلي؟

طَلَبَ شيئًا نشربه، بدأ الحديثَ قائلًا وهامسًا: حنان لنلغي الألقاب أولًا. رددت: أوكي .. رغم أنه ألغى الألقاب وحده.

أصبح لديّ فضولٌ كبيرٌ لأعرفَ ماذا يريد.

تابع قائلًا: تعرفين أنني طبيبٌ وعملي يضطرني للسفر باستمرارٍ لبعضالدراساتالتي أتابعهامن خلال تخصصي.

سألتُ نفسي: أيمكن أنه يريدني أن أعملَ معه؟

تابع مقاطعًا أفكاري المزدحمة بالتوقعات: أنا من أسرةٍ دمشقية لوالدين أعتزُ بهما، ثلاثة إخوة أنا أكبرهم وشقيقة وحيدة. تَمَهّلَ قليلًا، ثم تَابَعَ: قررتُ السفر خلال فترةٍ قريبة، إنه ليس قرارًا بقدرِ ما هو متابعةٌ لأعمالودراسةٍ لها من الأهمية الكثير لعملي الجراحي للدماغ والأعصاب.

عاد وتوقّفَ وهو يرشف قهوتَه بهدوءٍ، قلت لنفسي: ما دخلي أنا بكل هذه التفاصيل لحياته؟! تَابَعَ قاطعًا حبل أفكاري من جديد: حنان أريدك معي.. زوجة وحبيبة،ليس لدي وقت طويل.

قلتُ لنفسي:- إنه رجلٌ عمليٌّ ليس لديه وقتٌ للحب والعلاقات والغرام والكلام الفارغ!.. أخذَ يشرح لي يومَ رآني لأول مرة مع أمّي بالمَشْفَى.

قائلًا: مِن أول ما رأيتك كان شيءٌ يشدني إليك، حزنٌ بعينيك، هدؤك، اتزانك، صمتك، أشياء كثيرة شدتني، فضولٌ غريبٌ جعلك تحتجزين أفكاري لك، مع الأيام تأكدتُ من خلال الفترة القليلة التي رأيتك فيها مع أمك أنني أتمنىأنتكوني لي زوجةً وأكون لك الزوج الذي تحلمين به ويسعدك.

صمتٌ طويلٌ لَفَّنَانحن الاثنين، ثم تابع وأنا أصغي بشيءٍ من الدهشةِ والاستغراب: أريد رأيك، فكري جيدًا، وسأنتظر ردّك، أتمنى أن لا يكون بحياتك أحدٌ حتى هذا اليوم.

نَظَرَ إليّ يبحثُ عن ردٍّ من خلال نَظَرَاتي المليئةِ بالمفاجأة والدهشة.

أخذني الصمتُ .. لا أعرف.. عندما نصمتُ عيونُنا تصمتُ معنا، أم أنها تكشف ما بداخلنا من دهشةٍ واستغراب وتبدأ بحديثها الخاص.

هي مفاجأةٌ أكيد، وأنا بهذا الوقت لم أكن أنتظر أو أتوقع أو أهيئُ نفسي لهذاالموضوع، ولا أنتظر مفاجآت. إنه ليس عملًا، إنه مشاركةٌ لحياةٍ مع شخص آخر.

كان آخرُ شخصٍ ممكن أن أتوقع منه هذا الطلب،وآخر شخص ممكن أن التقي به هذا اللقاء الذي لم أنتظره يومًا ولم أفكر فيه.. لمأحاول التفكير فيه من أيّ بابٍ كان ولأيّ سببٍ. كنتُ قد أغلقتُ كلَّ الأبواب على قلبي وحياتي الخاصة.

لَمَحَ ذلك الاستغرابَ وتلك الدهشة وذلك الألم، سأل:

- حنان، ما بكِ؟ فاجأتُكِ بدخولي الموضوع مباشرة دون مقدمات ، أم أنني جئتُ متأخرًا؟

قلتُ له: أبدًا، فقط فاجأتني بهذا اللقاء، بهذا الموضوع، بهذا الطلب ومنك بالذات. هذه المدة الطويلةلمعرفتنا .. لم يكن لقاء... وجود أمي بالمشفى ومرضها واهتمامك بها كلُّ ذلك لم يكن لقاءً ولا حتى معرفةكل منا للآخر، خروج أمّي من المَشْفَى، وأشياء كثيرة لم تكن موجودةً بيننا أصلًا.

تابعتُ وأنا أستمدُ من داخلي بعضَ القوة والثبات: إنّ مثلَ هذه الأمور لا يمكن البحثُ والحديث فيها هكذا، هو موضوعٌ عائليٌّ على الأغلب.

قال بسرعة: بالتأكيد... طبعًا، هذا ما أنا بصدده، أن يأخذ شكلَه العائلي بعد سماعِ رأيك وقرارك قبل أن أطلبَ من أهلي زيارةَ الأهلِ ليأخذَ الموضوع شكله الرسمي والذي أتمناه.

تَابَعَ: رأيُك حنان أهم شيءٍ عندي ...القبول...قبولك لي شكلًا وموضوعًا. شردتُ مع نفسي وأنا أسمع ما يقول .. رأيي بشكله!

كلُّ ما فيه تتمناه كلُّ فتاةٍ. وأنا خرجتُ من قصة حبٍّ فاشلةٍ، لم أُحْسِنْالاختيارَ الصحيحَ على الرغم من أنه مضى سنتين وأكثر على ذلك، فهل بإمكاني أَخْذَ قرارَ الزواج بهذه السرعة؟هل شُفيت حقًّا من حبِّ ناجي؟ وهل بإمكاني أن أُخبِرَ خالدًا بكلِّ ما حدث معي بعلاقتي مع ناجي؟

لا، لا، ناجي أصبح من الماضي، وانتهى.

تُرى أكان ما بيني وبينه حبًّا؟ ما هو الحب؟

كيف بإمكاني أَخْذَ قرارٍ بالزواج من رجلٍ لا أعرف عنه الكثير، بل لا أعرف عنه أي شيء؟! ما هي العلاقة الصحيحة بين الرجل والمرأة؟هل بوسعي أن أثقَ بأيِّ رجلٍ مرةً أخرى بعد صدمتي بناجي؟ ربما كلُّ الرجالِ مثلُه!

أعادني خالد من صمتي وشرودي وهو يقول: سأترك لك فرصة التفكيروأخذ القرار، وأنتظرُ ردَّك، لا تستعجلي، خذي وقتك حتى وإن كنتُ مستعجلًا أنتظر؛ لأنني مهتمٌ جدًّا بكِ، أنتظرُ ردَّكِ بفارغِ الصبرِ.

وغادرنا المطعمَ كلٌّ بسيارته.

في طريق عودتي قلتُ لنفسي دكتور خالد يكبرني كثيرًا...أنا في أواخر الثالثة والعشرين وهو على أعتاب الأربعين.

وصلتُ البيتَ منهكةً، دخلتُ غرفتي وأنا أقول لأمِّي: أنا متعبةٌ جدًّا اليوم من الشغل كان نهارًا شاقًّا.

تابعتُ: سأدخل غرفتي لبعض الوقت.

سألتني: ألا تودين تناول الغداء وبعدها ترتاحين؟

قلتُ لها: ليس لي أي نفس على الطعام من كثرة التعب.

واقتنعتْ أمي أو كعادتها تظاهرتْ بذلك!

في المساء جلستُ مع أمي وأخي سامي كالعادة ندردش بعد العشاء ونشاهد ال VT ونشرب الشاي ومواضيع كثيرة نتحدث بها إلّا ما حَدَثَ معي، أحسستُ أنني أعيد نفسَ التجربة ونفس الخطأ الذي مررتُ به

بعلاقتي مع ناجي؛ في الاثنين لم أخبر أمي بالموضوع من بدايته، لكن هنا تبدأ البداية ولم أدخل بها بعد، هذه المرة سأخبر أمّي - أكيد-وبكل التفاصيل الصغيرة فقط عندماأعرف وأتأكد أنني انتهيتُ من ناجي وكل الماضي معه وما يحويه من ألمٍ ومرارةٍ.

في الصباح كالعادة ذهبتُ للوزارة ولاشيءَ أفكّر به. كان لديّ صفاءٌ ذهنيٌّ غريبٌ لم أشعره من قبل سنين، تابعتُ عملي وأخذتُ قهوتي كالعادة وأنا أسمع فيروز مع الصباح:

نديلك ياحبيبي ما بيسمعني حدا..

لا التلات الغريبة بترجعلي الصدى...كم أنا بحاجة لحبيب ...

توالتِ الأيامُ بسرعةٍ أو ببطءٍ لا أعرف، ولكنني تناسيتُ موضوعَ خالد، أو أنني تركتُ لنفسي الهدوءَ ريثما يتغيّر معي أيُّ تحوُّلٍ لمشاعري التي بدأت تنفصلعن الاختلاطاتِ التي كنتُأعيشها وأعاني منها وتمنعنيمن التفكير بشكل صحيح، إلي أن جاء يومٌ اتصل فيه دكتور خالد، سمعتُ صوتَه في البداية لم أعرفه إلى أن قال:

- دكتور خالد معك حنان.

قلتُ: أهلًا وسهلًا.

أخذني الصوتُ، أخذني إلى غرفٍ صغيرة داخلَ نفسي المظلمة ليوقظَها من كلِّ السُباتِالذي مرّ عليها وعاشته قبل سنوات. لا أعرف كيف شدني وهو يقول لي: حنان، كيف حالك؟ اشتقتُ إليك.

حَرّكَ مشاعري من جديدٍ، نبضُ قلبي تسارعَ إحساسي بأنوثتي التي نسيتُها عادَ لي من جديد، أيقظَ كلَّ الأحلامِ الجميلة النائمة.

أخذتِ الحياةُتسري بشرايين القلب المغلق بصمتٍ عن كلِّ شيءٍ وأهم شيءٍ، الحب..أيقظَ بداخلي لهفةً ممزوجةً بالدهشة لكلِّ هذه المشاعر، أوقظَ حبِّي للحياةِ والناس بعد أن كنتُ قد أهملتُ كلَّ شيءٍ فيها، أهملتُ

شكلي ونفسي ولباسي، أقتصرُ علتي شرت وجينز نسيتُ فيهم ذاتي وحياتي!

سأل: حنان، ألستِ معي؟

قلت: أجل، معك أسمعك ... أهلًا بك دكتور.

سأل للمرة الثانية: أنت معي حنان متأكدة؟

- نعم معك.

تابعَ: ألنا لقاءٌ وموعدٌ ننتظره من مدةٍ ربما أصبحت طويلةً، أم وحدي من ينتظر؟

قلتُ له: نعم، نعملنا موعدٌ، لست وحدك من ينتظر .. أنا أيضًا.

قال: نلتقي إذًا اليوم، أم في الغد؟ في أيِّ وقتٍ تريدينَ أنا معك إن شاء الله.

قلت له: في الغد مساءً، مناسب؟

قررتُ أن لا ألتقية ثانية إلّا بعد أن أخبر أمِّي.

ردَّ عليّ قائلًا: مناسبٌ جدًّا، موافق، أنتظر الغد، إلي اللقاء.

وأقفلَ الخطَّ، وسألتُ نفسي وأنا ما زلتُ أمسِك سماعةَ الهاتفِ: ماذا أريد؟ هل حقًّا أريد خالدًا؟انحدرت دمعةٌعلى خدي وأنا في طريق عودتي مشيًا على الأقدام لأترك لنفسي مساحةً واسعةً من التفكير قبل أن أصلَ البيتَ وألتقي بأمي وأحكي لها ما حصل.

لم أشعر بطول المسافة ولاكم شارع قطعتُ، كلُّ ما شعرتُ به أنّ عطرَ الياسمينيدخل رئتيّ؛ لينعشَ أنفاسي من جديد، وأنني أصبحتُ أكثرَ نضجًا.

وصلتُ مرهقةً متعبةً، أفكارٌ كثيرةٌتَضِجُّ برأسي وعقلي، ماذا أريد؟وأخذتُ قرارًا واضحًاأن أقول لأمي كلَّ شيءٍ قبل أن آخذ القرارَ وحدي.

أمي الحبيبةكم أشتاق لرأيكِ. جلسنا نشرب القهوة معًا بعد الغداءندردش، ولكن هذه المرة عني.

سألتُها: أمي، ما رأيك بالدكتور خالد، أ تذكرينه؟

صمتتْ قليلًا، ثم قالت: رجلٌ كامل في كلِّ شيءٍ، سمعة، واسم، وشهرة، ونجاح. لم نعرف عنه سوى القليل من خلال المدة التي كنتُ فيها بالمَشْفَى من خلال عمله كطبيبٍ أيضًا، لن أنسى وقفته معنا وهو لا يعرفنا، قدّم لنا الكثيرَ من المساعدة والاهتمام، ولكن ما الذي ذكّركِ به لتسأليني عنه بعد

هذه المدة الطويلة؟أتمنى أن أفهم يا حنان ليتك تعودين إليّ صديقةً كما كنا زمان،لا يبعدك شيءٌ عنّي،كم أشتاق لذلك ابنتي!

خجلتُ من نفسي وهي لا تعرف شيئًا عمّا حَصَلَ بينيوبين ناجي..رفضته هي .. وأنا تابعتُ، تابعتُعلاقتي معه رغم رفضها له وتوضيحها السبب، ماذا تقول لو عرفت؟ آه، كم أنا ابنة غيرُ جديرةٍ بها وبأمومتها الرائعة وخجلًا من نفسي قررتُ أن أقول لها الحقيقةبصدمتي بناجي وأن كل ما قالته وذكرته كان صحيحًا وأنا لم أسمع لكلامها، كنتُ جبانةً وعاقةً لحقوقها عليّ، بماذا أصف نفسي وماذا أقول عنها؟

كم تتألم الفتاة وهي بعمر المراهقة، فيها تكون التغييراتالفسيولوجي بأَوُجها، اضطرابات هرمونية، وانتقال من مرحلة لمرحلة، إنها أصعبُ مراحل العمر التي تمرُّ بها الفتا، طبيعة الأنثى-وأنا مررتُ بكلِّ ذلك- ولم أسمع لقرار أمي ولم آخذَ به.

كم تألمتُ، وكم انكسرتُ وحدي لا يشاركني أحدٌ.أبعدتُ أمّي، وابتعدتُ عنها؛ لذلك لم يحالفني الحظ في الاختيار ولا في القرار، لم أُوَفّقْ طيلة الفترة الماضية.

أسأل نفسي لماذا أكتب اليوم قصتي معك، رغم كلِّ المرارة التي عشتُها

بعد الفراق والخيانة والغدررغم أن حياتي أخذتْ لها طريقًا آخر بعيدًا عنك كلَّ البعدِ، أشرقتْ شمسُ حياتي وعمري لخالدٍ، من جديد جعلني أحبُّ الحياةَ لأجله.

أكتب اليوم لتعرفَ ابنتي..هي رسالة لابنتي لتعرف ما لم أعرفه وأنا بعمرها، أكتب لنُهَى لتقرأ حياتي على السطور والصفحات وتكون أنضجَ وأوعى ممّا كنتُ عليه بعمرها، أكتب لها لخوفي عليها من أن تُجرح مشاعرها وينكسر قلبها إذا أحبت يومًا ولم تعرف كيف يكون الحبُّ ناضجًا وصحيحًا معافًى.....

آه، كم أخاف ذلك اليوم أن تمرَّ نُهبا مرّمعي وأَلَامَنِي وتتألمُ هي. أذكر تمامًا كم كانت سعادةُ أمي كبيرة حين أخبرتها أن دكتور خالدًايريد أن يتقدمَ لخطبتي وينتظر ردًا منّي، لن أنسى ذلك اليوم أبدًا، بل تلك اللحظات والثواني التي لمحته بعيونها،بريقًا غريبًا من السعادة،الذي لم أراهفي عينيها الحزينتين منذ وفاة والدي من سنين.

ضمتني إلى صدرها بقوة حبّها وفرحها وهي تقول: حنان حبيبتي، أنا لا أريد من الدنيا سوى سعادتك وأخيك سامي، أنتم فرحتي من الدنيا كلها. صمتت قليلًا وتابعت قائلة: عندما تقدّم لك ناجي لم أوافق لأسبابٍ كثيرة شرحت لك بعض منها لأني أعرف بإحساس الأم أنه غير مناسبٍ وليس

هو الزوج الذي سترتاحين وأنتِ معه، عرفتُ أيضًا أنك كنتِ تلتقيه ولم تهتمي لكلامي ورأيي بما قلته وذكرته لإحساسك بأني ظلمتك، وظلمت حبَّك المندفع، كنتِ مندفعةً وأنت بعمرٍ صغيرٍ نهاية التاسعة عشر. طفلةً كنتِ، مشاعرك مختلطة، عمر المراهقة،خفتُ عليك كثيرًا وقلتُ لنفسي صَدِّي لكلن ينفع بل سيزيد تمسكك به وبرأيك.تركتُكِ لتثبتَ لك الأيامُ وأنا أتمزق بداخلي وأنت معه، وأموت كلَّ يومٍ ألفَ مرةٍ.كان مرضي بسبب ذلك وأنا أُخبِّئُ بداخلي المرارةَ والألم والعذاب لأني لم أستطيع أن أفعل شيئًا لأحميَك من جروحٍ تنتظرك، أيضًا لم أعرف كيف أقنعك برأيي، فشلت، فأتعبني ذلك جدًّا.الأم لا يمكن أن تعارضَ سعادةَ أبنائها، لها نظرةٌ تختلف عن نظرتهم لأمورٍ كثيرةٍ بالحياة من خبرتها وعلاقتها بالناس والمجتمع. أنا اليوم سعيدةٌ بكِ وأنت تنقلينَ لي خبرَ تحوّل مشاعرك عن ناجي، وأن ما بينكما قد انتهى وهذاأقصى ما يسعدني.أما دكتور خالد وتقدمه لخطبتك وتلك الملامح من السعادة على وجهك الجميل تغمره، أعطاني الكثير من السعادة لأطمئن عليك، رغم أن دكتور خالد أكبر منك سنًا بكثير تقريب ال ٥١ سنة، فكرتي بذلك حنان؟

خجلتُ من نفسي ومنكِ أمي والدموع تجمدتْ في عيوني، لماذا يا أمي، لماذا لم أسمع نصيحتك وتركت ناجي من البداية، تركتك تتألمينَ وتقلقينَ

عليّ كل هذا الوقت الطويل، عاندتك وعرضتُكِ لتلك الأزمة الصحية واعتبرتُ أني أدافع عن حبٍّ ومبدأ، وأنا لم أعرف الحب سوى مشاعرَ مراهقةٍ صغيرةٍ تحلُم، وتحلم، وانكسر الحلم وكسرها، كسرتني مشاعري في النهاية، كسرني الخداع..

أجابتني أمي: الحمد لله أنك في الوقت المناسب عرفتي الحقيقة وتعرّى ناجي أمامك،لقد ازددتِ نضجًا بعد تلك السنوات التي مرت.بأمومتي وحبّي حاولتُ أن أجنبك الصدمة في رفض أهل ناجي لك، قمتِ بالمهمة ورفضتِ الموضوع. مجرد زيارته دون أهله أعطتني فكرة عمّا سيحدث لاحقًا، عرفت أنه لن يستطيع أَخْذَ القرارَ رغم أنه قارب الثلاثين من العمر، وعرفتُ أن أخوته كلهم تزوجوا من نفس العائلة، عرفتُ أيضًا أنه بُهِرَ بكِ، وأنها نزوةُ شبابٍ وتحدًى، ومهما حَدَثَ لن يتزوج، لديه ألفُ سبب وسبب.كنت أدعو الله أن تنتهي هذه القصة دون أن تتأذّى مشاعرك وتُجرح أحاسيسك. والحمد لله، دخول خالد بحياتك يؤكد لي أن تحوُّلًا لمشاعركقد حصل، وأن علاقتك مع ناجي كانت محنةً وانتهت.أصبحتِ أكثرَ نضجًا وتفهمًا، ولكنك صغيرةٌما زلتِ، وستظلينَ بنظرِ أمك صغيرةً.

آهٍ يا أمي، كم أحتاجك في حياتي، في كل تفاصيل حياتي اليومية؛ لأزدادَ خبرةً منكِ، كم تعلمتُ من الماضي ومن تلك التجربة التي مررتُ بها، كم

أشعرُ بحنينٍ، وكم هو صعبٌ طعمُ الحزن الممزوجِ بالحلاوة.

إنها الذكريات التي لا تموت أبدًا، وحتى لا أكون سجينة تلك الذكرياتِ والماضي يعيش بداخلي يقبع مختبئًا؛ ليتحرك بين فترةٍ وأخرى، أو ظرفٍ وآخر، أو حادثةٍ وأخرى وحتى لا أكون سجينة أيّ واحدةٍ منهما. أكتب تفاصيلي على صفحاتِ ذاتي ونفسي معك، كي لا تشدني رائحةُ عطرك يومًا إليك؛ لأبحث بذاكرتي: أين، ولمن كانت هذه الرائحة الأخّاذة، فأبحث لأفتشَ بذاكرتي عنك، أكتبك وأكتب نفسي؛ أشعر بك تخرج مني شيئًا فشيئًا، بل خرجتَ تمامًا.

وجاء موعدي مع خالد، أهو حبّي الحقيقي بعد النضوج الذي وصلتُ إليه؟ التقينا بذاتِ المطعم في السابعة: أكنتُ ملهوفةً له، أم كنتُ أبحث عن حبٍّ يسكنني ويسكن أعماقي بعد أنعرفتُ أنه لا يمكننا العيش دون حبٍّ، دون اهتمام، اهتمام رجل يستحق أن أنشد إليه بكل ما للأنثى من مشاعرَ وأحاسيس، بقوة الأنثى بداخلي، بقوة الإحساس الأنثوي الذي يمثل الطبيعة بكل فصولها: صيفها وشتائها، ربيعها وخريفها، الأنثى الأم، الأخت، الابنة، الزوجة. الأنثى هي تقلبات الطبيعة بكل أشكالها كما هي التقلبات البشرية بكل ما فيها، سُميت أنثى لأنها الأنس والوَنَسُ لكل احتياجات الطبيعة لها، كلُّ مَن هو منها ولها ويحتمي بها،ليست هي

مَن يحتمي بأحدٍ، الكل يبحث عن حضنها ودفئها؛ هي الأم التي تشمل بشمولها الكل، تحضن وليدها بأنوثتها تعطيه حنانها، تعطيه حبَّها، تعطيه دفئها، تعطيه الأمان ليكبر ويصبح رجلًا. تلك هي الأنثى التي أبحث عنها بداخلي، التي تربي ذلك الرجل ليصبح نصفَ المجتمع،والتي هي نصفُه الآخر، هي كلُّ المجتمع، النصفين معًا، نصف تشكله هي نفسها، ونصف تربيه.

فالرجل إذًا هو ابن المرأةِ التي هي المجتمع كله، هي الحياة.....والحياة رجلٌ وامرأةٌ...امرأة ورجل.. ولا يمكن أن يكون العالمُ بأحدهم فقط. الحياة هي إنسانٌ خَلَقَهُ الله تعالى وخَلَقَ منها زوجَها وبثّ منهما رجالًا ونساءً، ولا أحدَ يكون بدون الآخر، ليس هناك مساواةٌ بين الاثنين. المساواة بينهما غيرُ عادلةٍ، ظالمةٌ، وقاسيةٌعليهما معًا تضيع حقوقًا وتأخذ حقوقًا.

أنا ضلعٌ منك وأنت كلُّك منِّي، هما إنسانٌ له شقانِ كل شقٍّ يكمل الآخر؛ ليكون هذا الإنسان الذي نراه رجلًا كان أم امرأة. أنا أحتاج لمن أُكمِل نفسي معه وأكمله؛ لذلك عندما أخبرتُ خالدًا بقراري، وأنه بإمكانه وأهله زيارتنا. لا أعرف كيف أصف السعادةَ التي أحسستها به، كيف كانت عيونُه تلمع فرحًا وترتعش يداه أملًا عندما حاولتُ أن أخبره عن علاقتي

بناجي، رَفَضَ أن يسمع قائلًا :- حنان الماضي لا يهمني.. كلٌّ منّا له ماضٍ، وكلٌّ منّا مرّ بتجاربَ حياةٍ كثيرةٍ، مَن منّا لم ينبض قلبُه بفترةٍ المراهقة.لا، ليس على أحدنا حقٌّ في مطالبةِ الآخر بما مضى، لنفتح صفحة جديدة ونبدأ الحياة معًا يدًا بيدٍ وقلبًا بقلبٍ..

كلُّ شيءٍ يفاجئني بخالد...لأنه أنضج وأكبر سنًّا، أم أنا مازلتُ صغيرةً لأفهم كيف يفكر الآخرون والكبار حولنا؟

تحدثنا كثيرًا..أخبرني يومَ رآني مع أمي بالمشفى كيف كان إحساسه بي، بأنني الفتاة التي يبحث عنها، لم يكن يفكِّر بالارتباط وقتها لعدم استقراره ودراساته التي لن تنتهي على ما يبدو، وأنه تمنى أن أكون الزوجة التي سيرتبط بها ذات يوم.

عَرَفَ عنّي كلَّ شيءٍ يريده: ماذا أدرس، وأين أعمل، وعائلتي، وتفاصيل كثيرة عني.أَعْجَبَهُ أنني أعملُ إلى جانب دراستي رغم عمري الصغير ورغم أنني لستُ بحاجة للعمل، فقط لوجودي وإثبات كِياني ومكاني، وفعلًا هكذا كنتُ أحبُّ أن يكون لي وجودٌ إيجابي يتحرك في هذا المجتمع، يُعطِي ويأخذ. أشياء كثيرة تكلمنا فيها وتحدثنا عن التفاصيل بعد أن زارنا وأهلُه، وأسعدني أن أفرادَ أسرتي رحبوا بخالد وأهله بسرورٍ.

ومرت شهورٌ قليلة حددنا بعدها موعدَ الخطبة، كانت حفلةً صغيرةً لأهله وأهلي، هكذا كان خيارُنا وقرارُنا العائلتين معًا لنتعرفَ على بعضنا أكثر من خلال الأهل.

أحببتُ خالدًا...أحببت فيه ومن خلاله أهله وعالمه، أحببت نضوجَه ووعيَه وعمرَه، مركزَه، مكانتَه، تفوقه وإبداعه بعمل الجراحة العصبية التي يتحدث عنها المجتمع؛ كلُّ هذا وأهمها: شخصُه شدّني لأرتبطَ به وأتابعَ حياتي معه، هو أحبَّ أهلي، وأمّي كانت أكثر من رائعة بكلِّ حنانِها وحبّها وعطفِها، كلُّ وصفٍ لها لا يُعطيها حقَّهامعي وحدي على الأقل.

وما زاد من سعادتي أيضًا انسجام أخي سامي معه، أعطاني دفعًا قويًّا للشعور بالراحة رغم أن طبيعة عملهم تختلف: سامي مهندس يتعامل مع الباتون المسلح والحجارة، وخالد طبيب يتعامل مع الجسد البشري والأعصاب.

لم ننتظر طويلًا حددنا موعدَ الزفاف..كنتُ وخالد قد جهزنا كلَّ شيءٍ بإشراف أهله وأمّي، كان ارتباطُه بأهله قويًّا جدًّا.أمضينا بضعة شهور في دمشق عروسين، وخلال تلك الفترة كنا نحضر لسفرنا إلى لندن لمتابعة بعض الدراسات والمؤتمرات خارجًا.

كانت لنا شقتنا الصغيرة التي ضمت كلَّ ما نحتاجه خلال إقامتنا المؤقتة بدمشق، غرفتيْ نومٍ، وصالة كبيرة للضيوف، ومكان الجلوس والطعام، كلُّ ترتيبٍ فيه مميز وله بصمات جميلة تخصني، ترتيبي وتنظيمي، كلُّ شيءٍ فيه كان مختلفًا هكذا أحببتُ أن يكون بيتي الصغير الذي حلمت به منذ طفولتي وأنا ألعب بالدمى.

جاء دور صديقاتي وزميلاتي بالعمل لزيارتي وتقديم التهنئة، أمضيتُ وقتًا معهم، ولكن دخول فاطيما معي (الرسبشن) لتساعدني في تقديم الضيافة، استغلت الظرف والوقت لتقول لي: حنان أريد أن أخبرك شيئًا، صمتت ثم تابعت: ناجي عاد إلى سوريا وهو الآن بدمشق،وسأل عنك أكثر من مرة. لم أهتم لكل ماذَكَرْتْهُ ولم أرد...ناجي لم يعد يعنيني أمره.

قالت متابعة: قلتُ له أنك تزوجتي وستسافرين قريبًا، كأن تجاهلي لمّا أخبرتني به لم يعجبها!

تابعتْ حديثَها بغيرِاهتمامٍ منّي وبدون أن ألتفتَ لها، شغلتُ نفسي بما أحضره للضيوف وخرجنا إلى المجموعة بالصالة نقدم الضيافة ونشرب القهوة ونحن نتحدث بأحاديثَ متنوعةٍ إلّاعني، والجميع أبدى سعادته لأجلي،وتمنيت لو أن فاطيما لم تنقل لي هذه التفاهات بعد زواجي خاصة.

حان وقت السفر وأكّدَ خالد الحجز لتذاكر الطائرة. ذهبتُ إلى الوزارة لتقديمِ استيداع أو إجازة بدون أجر لمدة زمنية محددة فاحتمال عودتنا خلال سنتين أو أكثر. وخالد ترك لي حرية الخيار بالنسبة لعملي خاصة بعد تخرجي. تمنيتُ ألّا ألتقي بناجي أبدًا في ذلك اليوم، ولكن للأسف... أجل أقول للأسف لأني نادمة على كل لحظة أمضيتها من حياتي وأنا أفكِّر به، وأنه أخذ من وقتي وتفكيري تلك المساحة، كان في وقتٍ خاطئٍ وغيرِ محسوب.

كم نندم ونحن بهذا العمر على انفعالاتنا وعواطفنا المضطربة غير المستقرة في عمرنا الصغير، ولا نعرف تفسيرًا لها سوى مُسمّى واحدٍ..اسمه الحب، ونحن لا نعرف شيئًا عنه بذلك العمر،عمر الاضرابات النفسية والهرمونية التي تجعلنا نرفض كلَّ الخيارات والقرارات من الآخرين. لا أعرف كيف مررتُ بهذه العلاقة حتى أنني أشعر وكأن إنسانةٌ أخرى غيري كانت تسكنني ولستُ أنا! كم نخجل أحيانًا من عواطفنا المضطربة أيامَ المراهقة، ولكن أحدًا لن يعترف بفشله وإحباطه لقرارٍ أخذه خطأً أو للحظة عشنا ومررنا بها وتركت بداخلنا ألمًا وغصةً. ولا يزال سؤالٌ يحيرني: لماذا يا أمي ياحبيبة عمري كله، لماذا لم تُشدِّدي عليّ لأترك ناجي؟لماذا لم تلاحقيني لتركه؟ لماذا لم تعاقبيني على رفضي سماعَ قراركواحترامه وأخذي به، لماذا؟

ليتك عاقبتني، لكان العقاب أسهلَ من كلِّ تأنيبِ الضمير الذي يعذبني اليوم؛ لأنني سببتُ لك مرضًا خطيرًا آلامكفي ذلك الوقت, ولم أعرف أنني السبب إلّا في وقتٍ متأخرٍ بعد سني،لقد رَأَفَ اللهُ بي وبك كي لا أشعربالذنب مدى الحياة لو حصل لك مكروهٌ ولم يتم شفاؤك.

أقول اليوم هذا الكلام لأخففَ وقعَ الألم عن نفسي، أم لأمحوَ شيئًا من الذنوب والأخطاء التي ارتكبتها بحقك أمي، أم أنني أعترف خوفًا على ابنتي وحبِّي لها؟ هكذا تختلط مشاعرُ الأمومة بداخلنا وتسيطر على كل أحاسيسنا.

آهٍ ياأمي .. آه!ها هم أولادي بقربي وحضني وقلبي، وزوجي إنسانٌ رائعٌ وناجحٌ وأنا أحبُّه، وما عَرَفْتُ الحبَّ الأولَوالآخرَ إلّا معه. أعترف اليوم بكل صدق وأمانة أنه حياتي وعمري كله. والحمد لله يومها لم ألتقِ ناجي، أكان اللهُ يسمعني وجنبني ذلك اللقاءَ؟

وسافرنا وعشنا حياةً ليست مثاليةً بكلِّ شيءٍ حتى لا أبالغ، كنتُ أختلف وخالد ككلِّ زوجين ولكننا نلتقي بشيءٍ يجمعنا وفكرٍ شاركنا بعضنا به، لم يبتعد أحدُنا عن الآخر مهما اختلفتْ وجهاتُ نظرنا لا يبتعد أحدُنا عن الآخرلا بفكره ولا بجسده مهما كان الخلافبيننا.كلُّ شيءٍ بحياتي كان ناجحًا من وجهة نظري وزوجي، هكذا أرى حياتي، ابنتي نهى وحيدتي

تدرسُ الفنونَ التشكيلية كان ذلك خيارَها رغم عمرها الصغير فهي بأول سنتها الدراسية لأكاديمية الفنون الجميلة. ابني وليد الأصغر يتابع دراسته الثانوية، كم أحبهم،وكم أحب فيهم والدهم؛ لأنهم قطعة منه ومني!

عرفتُ مع الأيام أن عواطفنا أيضًا تكبُر معنا وترتاح من تلك الفوضى التي كانت عليها، فعندما يكبُر بنا العمرُوتأخذنا السنين معها نزداد نضجًا، تنضج عواطفنُا معنا ويأخذ كلُّ شيءٍ مكانَه المحدد، تسكنُنا الراحةُ النفسيةُالتي نحتاجها.

أتساءل كثيرًا كيف تتحدثُ الكثيرات عن العلاقة الزوجية واحتياج الرجل للمرأة وإصراره علىاحتياجه الجسدي لها، ولا أحدَ يذكر أنها أيضًاتحتاجه جسديًّا، تحتاجه بسريرٍ واحدٍوجسدٍ واحد وقلبٍ واحد.

لماذا الحديث عنها مغلقٌ، وكأنها مجردةٌ من كلِّ الأحاسيس ليظلَ الرجلُ في القائمة السوداء حين يعبر عن انفعالاته واحتياجاته؟ وكأنها بدون مشاعر لاحتياجات جسدها ومتطلباته! كنتُ أشعرُ بحبّي لخالد وتعلُّقي به من السرير إلى ضمّةٍ وشَمّةٍ ولمسةٍ يأخذني بهامعه إلى عالمٍ من اللذة ونتحد جسدين معًا لشعورٍ مفعمٍ بالسعادة.. مِن هنا تُولد السعادةُ الزوجية والحبُّ والعشق، من هنا من غرفة النوم، تتطاير السعادةُ كرائحةِ الياسمين والورد الجوري أيامَ الربيع.

كيف أرضى أن أمحوَ كلَّ هذا الإحساس العالي بخالدٍ وشعوري بالسعادة معه حين التقائنا لأقول أن الرجل هو المتطلبُ وأني أنصاعُ لمتطلباته الجسدية كنعجةٍ وأنا أتحرقُ شوقًا إليه لأذوبَ معه جسدًا وروحًا.

من خلالِ حُبّي لخالدٍ أحببتُ العالمَ كلَّه لراحتي النفسية والجسدية معه، لا يسكنُ قلبي سوى الحبّله ولأطفالي، ولا أعرف الكُرهَ ولا الحقدَ أبدًا.

أحببتُك خالدًا، أحببتُ فيك كلَّ الآخرين، أحببتُ عبرك ومن خلالك العالمَ كلَّه، أحببتُ فيك نفسي وحبّي لك، أحببتُكَ غائبًا بحرارةٍ أكثرَ تفرضها قوةُ الحبّ داخل أعماقي ولهفة الشوق في عيوني التي تفضح أسرارَ قلبي وعشقي لك، تَلُفُّني همساتُشوقك إليّ، حبُّكَ عشقٌ يسكنني ويجتاحنيكلما فَاضَ شوقي إليك؛ دائمًا تسكنني حالةٌ من الشوق عندما تكون بعيدًا في مؤتمر أو تمضي ليومٍ عملٍ لعمليةٍ جراحةٍ ويزدحم وقتكبالمشفى الذي تعمل به. أشتاقك بضِباب لندن والمطر المنهمر في الصباح ورياح الليل تأتي إليّ من الشوقالذي أنا فيه وأنت بعيد، أسأل نفسي: لماذا يأخذني كلُّ الشوق إليك ويأتي إليّ دفعة واحدة وهو يحمل معهكلَّ احتياجي لوجودك؟

كم أحببتُ زوجي! وكلما ابتعد تصرخ اللهفة بأعماقي شوقًا إليه، ما الذي أحسُّه وأحمله لخالد هو أكثر من الحب، هو أكثر من العشق، هو أكثر

من... هو ساكنُ الروح والجسد، هو كِياني كلُّه!

ذهبتُ مرة إليه في المشفى حيث يعمل، دخلتُ لأراه في غرفة العمليات في أدقِّ وأصعب عملية جراحية عصبية كانت له بلندن.

عندما طلبتُ منهم رؤيةَ زوجي دكتور خالد العثماني، لم يمانع أحدٌ من طاقم العمل، أعطوني ملابسَ معقمةً لأرتديها ووضعوا لي كامة على فمي وأنفي، دخلتُ لأقف بمكان لايراني خالد منه.

هالني ما رأيتُ.. هذا الرجل ... هو لي .... لي وحدي.

هذا الرجل العظيم الذي يختلف تمامًا هنا بمكانه العملي، بشخصيته القوية التي يُحسبُ لها ألف حسابٍ وحساب، فهو لا يضحك للرغيف الساخن، الكلُّ يهابه ويحترمه، الكلُّ يقف عندذكرِ اسمه، وعبقريته وتميُّزه بكلِّ شيءٍ.

أخذتُ أنظرإليه وأتابع حركاته وهو يقصُّ هنا ويربط ويخيط هناك وإحدى الممرضات تمسح العرق المتصببعلى جبينه، أنقل نظراتي إليه، يديه وعضلات وجهه تنبسط وتتقلص حسب الظرف الذي ينتقل إليها من مرحلةٍ لأخرى.

يالهذا الرجل! عدتُ أتأمله، قوامه الجميل، وجاذبيته،لاحظتُ امتلاءه بعضَ الشيءِ، لقد زاد خالد بعض الوزن لم ننتبه لهذا، أهو العمر؟ ولكن هذا أعطاه مزيدًا من قوة الشخصية والهيبة والجمال والوسامةمع تلك الخطوط من الشيب على صدغيه كم أحبها!

هذا الرجل لي، إنه زوجي وحبيبي وأبو أولادي وصديقي، هو الدنيا كلها بالنسبة لي.كم أشكر اللهَ على أنه منحني إياه، وعندما أخبرتني إحدى الممرضات المسؤولة بغرفةالعمليات أن الدكتور خالد قد يزعجه أنهم سمحوا لي برؤيته.

قلتُ لها: لا تشغلي بالك اتركي هذا الموضوع لي، ولما انتهى من عمله وخرج لغرفة التعقيم سبقتُه لغرفته أنتظره وأنا أجلس بمكتبه.

فَتَحَ الباب ودَخَلَ خالد مندهشًا لوجودي قائلًا: يا لها من مفاجأةٍ سعيدةٍ بعد هذا الجهد لأصعبِ عمليةٍ كانت لي.

أخذني بحضنه يقبلني وهو يقول: كم يسعدني وجودك المفاجئ هنا ياحنان، ما بكِ مأخوذة هكذا؟

قلتُ له: مَن يراك ويعرفك بعملك ولا يفتخر بك ويقف رافعًا لك القبعة.. ردّ قائلًا:- مهلًا...مهلًا ما هذا .. ماذا أسمع؟ كل هذا المديح لي؟

خالد أعترف لك أنني ضغطتُ على المسؤولة بغرفة العمليات لتسمحَ لي أن أراكوأتابعك لأصعب جراحة لك، فقد كنتُ قَلِقَةً عليك، وهالني ما رأيتُه..رأيتُ عظمةَ ما تفعل ودقة عملك.. رأيتُ شخصًا آخر، رأيتُ الطفلَ الكبير بين أحضاني رجلٌ عظيم .. خالد .. الكلمات كلُّها لا تسعفني لأقول لك فخري واعتزازي بك، كم أحبُّكَ...

أخذني إليه وقال مازال لدي أعمالٌ مهمةٌ وكثيرة طيلة الوقت الحَرِج بعد العملية، فهل تتفضل المراقبة والحبيبة المتفهمةوالأم الحنونة أن تتلطفَ وتنتظرني ساعتين على الأقل لأعود وأتفرغ لها.

سأتابعُ عملي ليس من حظك اليوم مرافقتي فأنت لن تريني إلّا بأوقاتٍ قليلةٍ للاستراحة، قلتُ له: سأنتظرك, أنا معك في البيت ومن حقي أن أمضي يومًا كاملًا معك بعملك؛ لأعرفك من الجانب الذي لا أعرفك فيه، لأحبك أكثر، وأرعاك وأعتز بك أكثر ...

ضمَّنِي خالد قائلًا: أتركتي مكانًا أو ثغرة ولو صغيرة ليكون هناك تقصير منك؟! أنت الحنان بكل ما تعنيه الكلمةُوالاسم..تركني وذَهَبَ ليتابعَ عملَه، وأنا أتابع سعادتي به، إنّ هذا الرجل العظيم هو زوجي وحبيبي وعمري...ولمّا انتهى عدنا معًاإلى المنزل، وفي طريق العودة أخذتDC لفيروز، كم أحب سماعها عندما أكون مع خالد بسيارته، كانت أغنية

عندي ثقة فيك وبكفيك

عندي حلم فيك ...عندي ولع فيك

شو بدك يعني ..موت فيك ..

والله بموت فيك ...

معقول في أكتر؟!

أنا ما عندي أكتر

كل الجمل والحكي عم تنتهي فيك

حبيتك مثل ما حدا حب.... ولا بيوم رح بحب

والمطر يهطل بغزارة خارجًا، وخالد ينظر إليّ كل فترةٍ وأخرى وهو يقود مُراقِبًا الحالة التي أنا بها والتي هي نفس حالته، أرى انطباعه على الأغنية.

أخذنا نضحك معًا ونحن نردِّدُ مع فيروز بقية أغنيتها الجميلة التي تحكي شعوري وإحساسي سرحتُ بعيدًا وخالد يُدندنُ، لأعود بذاكرتي إلى صديقةٍ لي عرفتُها مؤخرًا ذكّرتني أيضًا بصديقةٍليبسوريا, كيف تمضي كلَّ واحدةٍحياتها الزوجية في شجارٍ دائمٍ ومستمر مع الزوج المتطلب على

حَدِّ قولها لرغباته الجسدية، وكأنّ كلَّ واحدةٍ منهما نسيت أنّ لها جسدًا له متطلبات ورغبات.

أذكر تمامًا كيف أخبرتني عن تعاستها وهمِّها عندما يشتاق لها زوجُها في الفراش وهي لا تطلب ذلك أبدًا، وتعتبر أنّ هذا هو الشيءَ الوحيدَ الذي يبعدها عن زوجها وينغِّصَ عليها حياتها لدرجة الكُرْهِ!

كيف تُهملُ المرأةُ حقًّا مِن حقوقها وتعتبره ضعفًا أمام الرجل ونزواته، وتقوم به تحت ضغوطٍ نفسيةٍ رافضةٍ كيف تترك نفسها تنساق كنعجةٍ كلَّ مساءٍ؟ استغربتُ كيف تنسى امرأةٌ نفسَها وحقوقَها؟! كيف تتنازل عنه لتبحثَ عن حقوق أخرى وهميةٍ أو عاديةٍ تحققها بإثبات نجاحها بالدراسة والتحصيل العلمي والعمل إلى جانب الرجل. تلك أيضا حريةٌ وحقٌّ، أمّا أنْ تنسى أنّ لها جسدًا وروحًا وعقلًا يطلب ما يطلبه الرجلُ، فذلك إجحافٌ وقهرٌ لحقوقها، لو بدأت في المساواة مع الرجل..مع زوجها..من هنا لانتهت بأنْ تكسبَ كلَّ حرياتها وحقوقها معه والتي تطالب بها. إنه تنازلٌ عن إشباعِ رغبةِ روحٍ، واشتياقِ جسدٍ لحقٍّ شرعيٍ مع الزوج لا أن تخجلمن جسدها واحتياجاتهالطبيعية!

تعودتُ بعد زيارتي لخالد بالمشفى ورؤيتي له بعمله الجراحي واستمتاعي به عظيمًا قويًّا، تعودت المرورَ بين فترة وأخرى إلى المشفى رغم بعد المسافة

عن عملي وبيتي، بعد الإنتهاء من عملي في دروسِ اللغة التي كنتُ أُعطيها في معهدٍ صغيرٍ خاصٍ لتعليماللغة العربية لأولادِ المغتربين حيثُ نقيم وجدتُ لنفسي مكانًا أعلِّم فيه لغتنا العربية، كنتُ أستمتع كثيرًا بهذا العمل وأنا أُقدِّم من خلاله رسالةً للمرأة العربية المغتربة بأن تكون صورةً مشرفةً لوطنها في بلاد الغربة. أولُ ما بدأت، بدأتُ مع أولادي وبعدها أولاد أصدقائنا المغتربين خصصتُ غرفةً من المنزل في البداية، وخالد لم يعترض إلى أن تمكّنّا من إيجاد شقةٍ صغيرة تنفع لذلك، كنت أفتخرُ بما أفعلوأتمتعُ كثيرًا وأنا أمارس عملي وأتواصل مع لغتي الأم إلى الأجيال الآتية رغم أن دراستي بسوريا كانت لغة إنكليزية أفادتني هنا للتفاهم والتواصل مع ثقافة الغرب بانكلترا، وأوصلت لغتي العربية للأولاد المغتربين العرب من كلِّ الجنسيات.

كنا نلتقي بالجاليات العربية ونحتفل بكلِّ المناسبات الصغيرة والكبيرة القوميةوالوطنية والأعياد الدينية، وجدتُ لنفسي مكانًا بهذا المجتمع الغربي الذي أعيش فيه مع زوجي وأولادي.كنتُ أستمدُ القوة على مواصلة رغبتي بالعمل من زوجي الذي كان يعطيني ذلك دون أن يفقد شيئًا من شخصيته ووجوده. ونجاحي لا يعني إلغاءَ نجاحِه، فهوأيضًا يستمد من وجودي الكثير لما يحتاجه دون أن يؤثرَ على شخصيتي ويزعزع كِياني كامرأة وزوجةٍ وأمٍّ

وعاملةٍ، أمارس التدريسَ بشغفٍ وحبٍّ، لم يمنعني منكلِّ هذه الحقوق رغم عمله الطويل والشاق والدقيق الذي يحتاج لكثير من التركيز والراحة النفسية التي كان يجدها معنا.

كان البيت هو مركزَ الراحة والهدوء والاسترخاء بعد كلِّ نهارٍ شاقٍّ وعملٍ مضنٍي، سعادتي كانت وأنا أتأمّل نجاحَ زوجي وأولادي، بفخرٍ يكبرون أمامي بنجاحاتهم المستمرة كل سنة حتى وصلوا لما هم عليه الآن.

كنتُ أشعر أنني زوجةٌ وأمٌّ وسيدةُ عملٍ ناجحةٌ من كلِّ الجوانب، متوازنةٌ في الحياة ومتطلباتها.العطاء جميلٌ ومتعةٌ بحدِّ ذاته وأيضًا أن يكون هناك أخذ، لا يوجد عطاء بدون أن نأخذَ لنتوازنَ من جديد ونتابعَ الحياة بدون قسوةٍ وعنفٍ. الحياة مُبادَلَةٌ لتستمر بحبٍّ... نأخذ لنُعطِي.. ونُعطِي لنأخذ..لا يمكن أن ينجح العطاء بدون أخذٍ، كي تموتَ بداخلنا الأنانية وحبِّ الذات،أن نُعطيَ ونتمتع بلذة العطاء وجماله ذلك أيضًا نوع من التوازن لحياة جميلة هادئةٍ.

ويمرّرُ الزمنُ أيامَه يومًا بعد يومٍ، نقلّب صفحاتِ غدٍ لا نعرف من أيامه شيئًا سوى ما نتمناه ونسعى إليه بشغفٍ وحبٍّ لتحقيقه، مّا أن يقدّره الله لنا أو يحوّل رغباتنا إلى أمانٍ لا تتحقق فتبقى حلمًا.

أعطاني خالد كلّ الثقةِ منذ ارتباطنا، بهذه الثقة الكبيرة المُغَلّفة بالحبِّ لَمْلَمْتُ كَسْرِي الذي تركته داخلَ نفسي المحطمةيوم طعنتَني وخذلتَني وخنتَ ثقتي وحبي لأولِ دقةِ قلبٍ كانت لقلبي الصغير الذي لم يكن يعرف الحبَّ بعدُ ولا صدماتِه. لَمْلَمَني خالد، لَمْلَم جرحي ونزفي وكسري بعد أكثر من سنتين على غدرك لي. ذلك الرجل العظيم الذي لا يحمل عُقَدَ الأيام والسنين من عمره المُكلَّلِ بالنجاحاتوالعطاء،تربّى في بيئةٍ نظيفة وعائلةٍ متوازنة مع وقفات الحياة، هو الرجلُ الدمشقي بالعراقة الشامية، حمل تراثَ بلده ووطنه وجسده من خلال دراسته وعمله ونجاحه وعلاقته بين أسرته وأقرانه وأهل بلده، ترعرع في حضنِ أمٍّ تسكبُ حنان أمومتها وعطائها لتكوين أسرتها والمحافظة على سعادة هذه الأسرةبالحب، هي أمٌّ لثلاثة أبناء وفتاة، ولزوجٍ مهندسٍ ناجحٍ واصَلَ نجاحَه لأولاده وتواصَلَ معهم، أسرة متكاملة تملؤها العاطفة يُلَمْلِمُها الحنانُ والدفءُ والوُدُّ والأمان، إنه حضنُ أمٍّ لَمّت وشَمِلَتْ بحنانها نجاحَ أسرتها وأبنائها؛ ذلك هو الزرع الذي زرعته الأم لتنبتَ تلك الزهورَ المتشكّلةَ من أفراد أسرتها ربيعًا معطاءً، إنها العائلة الدمشقية التي يأخذنا الشوقُ إليها، ويَسْحَرَنا العشق الذي يسكننا فيك يادمشق، أموت ألف مرة ومرة لأتنفس عبيرك ياسمين ووردوأكون شآم، سكن الياسمين ليل دمشق وتغلغل في حواريها وزواريبها الضيقة وبيوتها الفخمة. الياسمينة الواحدة ولدت ألف قمر وقمر أبي و علقتهم على قضبان

النوافذ لتأتي أسراب السنونو وتعزف ألحان الغناء لتكتمل سيمفونية الجمال فأصبحتِ يادمشق قارورة عطر تفتحي لهم ذراعيك بأريج عطرٍ يلامس أبواب الجنة... هكذا كنا وكانت عائلة زوجي الشامية.

ولثقةِ خالدٍ بي أعطاني توكيلًا له بعد زواجنا وسفرنا إلى لندن، وبعد أن سارت بنا الحياةُ خطواتٍ طويلةٍ بمشوارها المختلف في عطاءته من سعادةٍ ومحنٍ ومنغصاتٍ أحيانًا، فهي لا تحملُ لنا بين أرصفةِ خطواتها خطَّسيرٍ مستقيمٍ من السعادةأو الألم؛ لذلك تخلّل حياتَنا الكثيرُ من منغصاته؛ليعرف أحدنا الآخر في كلِّ ظروف الحياة من عشرتنا.

عَرَفَ خالد من أكون، وكيف يتعامل معي ليعطيني ثقتَه الماديةَ بالإضافة لثقتِهِ المعنويةِ، خلال سفرنا لسوريا بين فترةٍ وأخرى والأولاد مازالوا صغارًا، ولكي تكون حركتي بحريةٍ تامة لا يعيقها عدم وجوده معنا.

أذكر تمامًا أنني سافرتُ ومعي الأولاد وليد ونهى لسوريا بعد وفاةِ والديّ خالد، طلب مني السفر لإنهاءِبعض المعاملات الضرورية للإرث بينه وبين إخوته بناءً على طلب شقيقه عصام وعلى الاتصالات التي كانت بينهم باستمرار؛ لذلك حين طلب عصام أن يأتي خالد لسوريا لإنهاءِ إجراءات قانونية ضرورية لمتابعة عمله بعد والده، أخبره خالد أنه لن يستطيع ولكن حنان ستقوم بالمهمة وستأتي لسوريا بدلًا عنه وبتوكيلٍ منه،

رحّبَ عصام وقال أنْ لامشكلةَ بذلك، المهم أن نُنهِيَ تلك الأمورَ المعلقةَ من مدةٍ أصبحت طويلةً.

احترتُ مع خالد يومها كيف سأكون نيابةً عنه بين إخوته يضعني في موقفٍ حَرِجٍ وحساسٍ بالنسبة لي ولهم، فتلك أمورٌ خاصةٌ بينهم كعائلةٍوإخوة.

ردّ عليّ قائلًا: لا تُكبّري الموضوعَ، هو أسهل من ذلك بكثير، كلُّ شيءٍ مع إخوتي سهلٌ ومريحٌ، اتفقتُ مع عصام على كلِّ شيءٍ، أنتِ بالتوكيل ستكونين مكاني بما أنني لا أستطيع السفر، لدي مؤتمرٌ طبيٌّ مهمٌّ جدًّا لي ولمركزي وسيكون سفري خلال أيام.

إخوتي يحترمونك ويحترمون قراري ويثقون بي، وليس عليكِ سوى التوقيعِ حين يُطلب منكِ ذلك. أنا وإخوتي متفقون على كلِّ شيءٍ، وشَرَحَ لي عصام التفاصيلَ، وحَصْرُ الإرثِ واضحٌ وأملاكُ الوالدين أيضًا كلنا نعرفها، بالإضافة إلى أنّ أعمالَ عصام كلَّها معطلةٌ بسببِ هذا التأخير لوجودي معهم وأعمال عصام مرتبطة مع أعمال والدي فهي استمرارٌله طالما أنهم بنفس المهمة تعهدات وبناء، والتي تخص دراستهم الهندسيةالوالد رحمه الله وعصام، وكل المشاريع بينهم لا يمكن تعليقها أو تركهامعلقةً ومعطلةً لأجل توقيع لي وهي اختصاصُ عصام وأنا لا أفهم بذلك، وأيضًا

أخي ماهر لايفهم فهو الآخر طبيب مثلي، وفريدة من حقِّها أنْ تأخذَ نصيبها، وكلنا متفقون لتسهيلِ الأمور وليست هناك أيّة مشكلةٍ، توكلي على الله وسأكون بانتظارك.

قلتُ له: والأولاد كيف ستكون أمورهم وعندك مؤتمر وسفر أيضًا، والمدرسة، وعملي؟ كان صعبًا عليّ أن أكون وحدي بعيدةً عنه، صعب.

أسكتني بقبلةٍ على فمي وابتسامةٍ عريضةٍ على وجهه الوسيم.

توقيتُ سفري لدمشق وسفر خالد كان بنفس اليوم لذلك ذهبنا المطار معًا، قرر خالد أن يكون الأولاد معي فرصة لهم ليتواصلوا مع وطنهم ويزروا سوريا.

كانت آخرُ زيارةٍ لسوريا أنا وخالد والأولاد من سنوات طويلة، وليد كان رضيعًا، ونهى في الثالثة من العمر لا يتذكروا شيئًا عنها.

تساءلتُ ونفسي التي كانت بعد خالد الوحيدةَ التي أناقشها وآخُذُ رأيها، اتفقتُ معها أن أخوضَ تلك التجربة، وأثبت لخالد أنّ ثقتَه وضعَها بمحلها، وأنني كما أرادني امرأةً قويّةً وهشةً، ناعمةً وصلبةً، متطلبةً ومعطاءة، محبة وحبيبة. هكذا كان يراني وهكذا أحبني، ويعرف تمامًا كيف يختار وأنه انتظرَ حتى الأربعين من عمره ليلتقيَ بمن يقتنع بها وتحملُ كلَّ المواصفات

التي حلم بها لزوجةِ المستقبل لتشاركه رحلةَ الحياة بحلوها ومرها، زوجة وحبيبة، وسيدة تستطيع العطاءَوتعرف كيف تأخذ ومتى.

كنتُ مقتنعةً معه بمعنى الأخذ، وأشددُ عليه فلا يمكن أن تكون المرأة مادةً وآلةً مطيعة، تتحرك عندما يشاء الآخرُ، تُعطِي وتتذمر، لا يمكن أن تكوني إنسانةً عليك أن تحافظي على إنسانيتك ولا تسحقيها لأيّ سببٍ كان،لا أحدَ يستطيع المحافظةَ عليها سواك أنت مهما كانت الظروفُ حولك.

تجربتي مع ناجي علمتني الكثير، علمتني ألّا ألغي نفسي تمامًا أمام من أُحِبُّ باسم الحب، لا يمكن. علمتني كيف أكون إنسانةً تحترم ذاتَها وتتصالح معها.

وخالد تعاملَ معي بأنني وهو (إنسان وإنسانة) كلٌّ منّا يُكمِلُ الآخر ولا يلغيه، وبغضِّ النظر عن أيّ اعتباراتٍ أخرى، يحترم عقلي وفكري وكِياني وجسدي كإنسانةٍ مثله تمامًا، وهذا أكثر ما يعجبني ويربطني بها و السبب الأكبر لارتباطنا.

وصلنا المطار، أنهينا كلَّ الإجراءات، ولمّا أُعلن عن قيام الرحلة من لندن إلى دمشق، ودّعنا خالدًا، ولأول مرةكنا نبتعد عن بعضنا بعد زواجنا أكثر من ثماني سنوات، رأيتُ دمعةَ حزنٍ يأبى أن يُظهرَها تلمع بها عينيه، وغصةً بعمقٍ يتهدّج بها صوتُه وهو يقول: حنان سأشتاقُ كثيرًا إليك وللأولاد، اتصلي بي فورَ وصولِك وفي كلِّ تحركاتك.

كانت الكلماتُ تتطاير من فمه، اسمعه يردّدُ كلامَه إناحتجتي أيَّ شيءٍ، ستجدينني معك دائمًابروحي وعقلي وفكري، وضمّني إليه بقوةٍ وقبّل الأولادَ، وتركني آخُذُ طريقًا لأدخلَ بوابةِ الطائرة وهو يلوح لنا بيده، ولم يترك لي مجالًا للكلام حتى دخلنا الطائرة ننتظر الإقلاع.

طلب المضيفُ إغلاقَ المحمول وربطَ الأحزمة. وخالد طائرتُه المتجهةُ إلى باريس بعد ساعةٍ من إقلاعِ طائرتنا إلى دمشق كُلًّا له وجهة مختلفة، ولكن القلوبَ رباطُها واحدٌ.

ربطتُ الأحزمةَ للأولاد ولي، وليد بجانبي ونهى بجانبه، صغار هم مازالوا، وليد في الرابعة ونهى في السابعة.

أقلعت الطائرة وأخذتْ طريقها بين الغيوم الداكنة في سماء لندنمتجهةًبطريقها مع الضباب إلى دمشق.وأخذني الحنين في غفلةٍ مني

إلى ذكرياتٍ ومحطاتٍ لها وقعٌ بنفسي مع خالد أيام زواجنا الأولى واكتشافي له يومًا بعد يوم، وما يحمله هذا الرجل من كبرياء وعنفوان وعظمةٍ، كل شيءٍ يخصه يدخل دائرةَ الحظر على الآخرين، إنه الرجل الشرقي بكلِّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى، كم أحبُّهذه الصفةَ به الممزوجةَ بكلِّ الألوانِ للصفات التي تكمل الرجل.

وصلنا مطار دمشق، كان بانتظارنا أمي وأخي وزوجته ديالا وأولاد، وإخوة زوجي عصام وزوجته دولت وأولاده، وماهر وزوجته صفية وأولاده، وفريدة حبيبة قلبي فهي أخت خالد الوحيدة وأصبحت مع الأيام الأخت التي عوّضتني الحياة، الأخت التي افتقدتُها طبعًا مع زوجها وأولادها.

كان لقاؤنا عاصفًا بالشوق، باكيًا بالحنين، سعيدًا باللقاء، لم ينقصنا سوىوجودِ خالد معنا.هؤلاء هم عائلتي العائلة التي أحببتُها منذ ارتباطي وخالد، وأولادي في دهشةٍ لهذا الحشد الكبير الذي ينتظرنا من الجميع، فهم لم يتعرفوا علىأفراد العائلتين، كانوا صغارًا لا يتذكرون الكثير، والحمد لله هذه الزيارة ستكون مفيدة للجميع ليتعرفوا على بعضهم كبارًا وصغارًا كما قرّرَ خالد تمامًا.

كنت بشوقٍ للجميع فردًا فردًا.بعد الانتهاء من السلام والقُبلات والدردشات جاء وقت التفكير إلى أين سأذهب، الكلُّ يحبنا ويتمنى أن

أكون والأولاد بضيافتهم. وقفتُ في خيارٍ صعب وأنا أرى كل هذا الاحتفاء من الجميع، مع مَن نكون؟ ومع مَن نذهب لنقيم تلك المدة من إقامتنا بدمشق؟ بالتأكيد لن أذهب لأقيم في بيتي رغم شوقي له ولا أفضل أن أكون وحدي مع الأولاد بعيدًا عن كلِّ هذا الجمع الحبيب. أريد أن نكون معهم وليس وحدنا.

لا...لا أستطيع أن أكون في بيتي وأعيش فيه هذه الأيام بدون خالد سأفتقده وأحن إليهأكثر، وأنا لا أريد أن تشغلني العواطف وأعطي لها مساحة واسعة، أنا بحاجة هنا للتركيز بما سيكون وأمّي لن ترضى أيضًا أن أذهب لبيتي، لا أعرف ماذا أفعل.

هي لحظات مرّت بفكري متسائلةً أبعدتني قليلًاعمّن حولي، وكأن عصام قَرَأَ أفكار، جميلٌ أن يفهمك الآخرون دون أن تتكلّم، ويقدرونوضعك بحبٍّ وقناعة وتفهُّمٍ، أحسَّ عصام بما يقلقني ويحرجني وأني لا أستطيع أخذ القرار والكلمتعلقٌ بالأولاد ليكونوا معًا، اختصر كلَّ المواقف وهو يقول: حنان، لا ترتبكي خُذي راحتك ولا تقلقي، أكيد تحبين أن تكوني مع أمك أنت والأولاد وهي تترقب ذلك وتنتظره ونحن معك وليس لك خيار آخر.

وتابع ضاحكًا: سنلتقي كثيرًا ونكون معًا أكثر الأوقات، المهم الآن حمدًا لله على سلامتكم، وتذكري أن الأولاد بشوقٍ لبعضهم، وضحكنا معًا.

كلُّ عائلةٍ أخذت سيارتها وذهبت مودِّعةً على أن نلتقي مساءً. عرفت أنه بذوقه وتهذيبه وإحساسه العالي عرف كيف يخرجني من مأزقٍ لم أعرف التصرف فيه، وعرف أيضًا أنني بشوقٍ كبيرٍ لأمي وأنني أفضلُ أن أكون معها وخاصةً في أول يوم لوصولنا دمشق.

كلُّ ما أشعربه اليوم أنني سعيدة بهذه العائلة التي تخصُّ خالد وأني أتعرف عليه من جديدمن خلالإخوته وتعاملهم معي ومع أولادي، كم أتنمى لو كان لي إخوة وأخوات كخالد وإخوته بالإضافة لي ولسامي.

جميل أن يكون لك إخوة يلتفون حولك بكل ظروفِ الحياة حلوِها ومرِّها، آهٍ، كم أحبُّ هذا الأخ الوحيد لي بالدنيا، ولكنني أشعر أن إخوة خالد كإخوة ليمقربين أيضًا.

صعدتُ مع سامي سيارته ومعنا أمِّي وأولادي بعد أن أوصل زوجته دولت وأولاده إلى منزلهم، ذهبنا إلى بيتِ أمي، حنينٌ كبير وذكريات جميلة وحزينة تركتُها هنا،كم أشتاقُ لهذا البيت، كم أحبه، ذكريات طفولتي وشبابي، كم أشتاق لدمشق، وشوارع دمشق، وياسمين دمشق؛أحبُّ كلَّ شيءٍ فيها، يا لحبيلهذه المدينة الذي يسكنني بعشق وجنون.

صباحك ومساؤك يادمشق صداقة ياسمين

وفنجان قهوة عنوانه الياسمين

ورضاك قطوف ياسمين

وإدراج وردك أنهار ياسمين

فقط لمن يعرف وفاء كل دمشقي لك ياشام.

أخذ سامي يشرح للأولاد وهو يقود السيارة كلما انتقلنا من شارعٍ إلى آخر، وكأنه مرشدٌ سياحي. ونهى تُتابعُ أسئلتها التي لا تنتهي حتى وصلنا شارعَ الثورة ومنه المزرعة، كم أحب هذه المنطقة، هذا الشارع، كم مررتُ به بحالاتٍ نفسية مختلفة ومتناقضة، آهٍ من الأيام! هذا البيت.. إنه الحنين... إنها الذكريات، كيف نمحوها؟

دخلنا البيت،أمي أخذت وليد ونهى وطلبت من جميلةَمدبرةِ المنزل التي رافقت مشوارَ حياتي وسامي، وهي تعيش معنا، تعودنا وجودَها الملازمَ دائمًا لوجودنا بجانب أمي؛ طلبت منها أن تأخذ لهم حمامًا دافئًا ليرتاحوا من عناء السفر. جلستُ وسامي ندردش وانضمت أمي إلينا بعد أن أمّنت على الأولاد بين يدي جميلة، قلتُ لسامي: لو جاءت معنا دولت

والأولاد فكم أشتاقُ إليهم، أنسيت أني العمة الوحيدة.

ضحكنا معًا وقال: لا تستعجلي على رزقك هم في طريقهم إلى هنا ريثما ترتاحين وتأخذين حمامًا ساخنًا سنكون كلنا على الغداء إن شاء الله.

مضى الوقت بسرعةٍ غريبةٍ، أنا مع أمي وسامي وزوجته والأولادمع بعضهم يلعبون بفرحٍ. في المساء أخذني سامي والأولاد لبيتِ عصام في المالكي حيث يسكن وعائلته، وبيت الأهل في دمشق القديمة بقي كما هو على حاله بعد وفاة الوالدين هكذا أخبرني عصام.

كانت فريدة وماهر مع أولادهم وزوجاتهم ينتظروننا عند عصام، اجتمعنا كعائلةٍ، كم أحببتُ هذه العائلة بكل أفرادها كبارًا وصغارًا.

التقى الأولادُ كلهم وليد ونهى مع أولاد أعمامهم وأولاد عمتهملم أراهم طوال فترة الزيارة التي امتدت حتى صباح اليوم التالي وهم مشغولون بلعبهم مع بعضهم. وأنا وإخوة زوجي نتناقش بأمورٍ كثيرة منها وفاة الوالدينوالورثة والعقارات والبيت القديم والمشروع المتوقف العمل بهللتوقيع على بعض الأوراق والمعاملات، وشرح لنا عصام مُفصّلًا عن كل شيءٍ يخصُّ والديه ونحن نسمع ونتابع، ونوافق، ونرفض، ونناقش بعض الأحيان لتوضيح الأمور المعلقة.

أمضينا تلك الليلة عندهمفالأولاد رفضوا الذهاب وترك تلك المجموعة من أقاربهم، بقيت وفريدة أيضًا، سهرنا طوالَ الليل ودولت ندردش عن سنين مضت بعد أن نام عصام والأولادإلى أن أشرق الصباح.

ذهبتُ والأولاد صباحَ اليوم التالي مع فريدة وأولادها أوصلتنا بسيارتها بعد تناولنا الفطور الذي أصرّت دولت ألّا نذهب بدونه. عندما وصلنا بيت أمي تفرّدت نهى ووليد بجدتهم لعبوا معها فقد كان لها بالٌ طويلٌ لحُبّها لهم وتعلقها بهم بعد وصولنا.

في اليوم التالي ذهبنا جميعًا للغداء تلبيةً لدعوةِ ماهر وزوجته لي ولأمي وسامي وعائلته، اجتمعنا على الغداء على الأكلات الشامية المميزة من كبب ومحا شي وورق العنب مع الشرحات وشاكرية ولبنية و أبوات؛ كانت دعوةً لغداءٍ مميز لكل الأكلات الدمشقية العريقة.

تابعنا الأحاديثَ ولعب الأولاد وهم في منتهى السعادة بهذه اللقاءات العائلية والتيكانوا يفتقدونها بلندن فلا يوجد مثل هذه الأجواء الأسرية الدافئة كدمشق، وعبق حنينِ ياسمينها بطرقاتها وشوارعها المليئة بهذا العطر الخاص والمعروشِ على حدائق البيوتِ يظللها بأوراقه الخضراء وزهوره البيضاء النقية الصافية؛ ليعطيَ لكل بيت فيها عبقَ نسائمِ رائحته الأخّاذة الجميلة؛ ليكونَ رسالةَ سلامٍ ومحبة من أهل دمشق لكل زائرٍ لها،

وعطره السحري الذي ميّز اللهُ سبحانه وتعالى وخصَّ الشام بها.

نهى كم أستهوتها تلك الرائحة وشدتها زهورها البيضاء وهي الصغيرة التي لم تتجاوز السادسة، سألتني في أولِ صباح لنا بدمشق، مامي:
- أشمُّ رائحةً جميلةً كلما هبّت نسمة رطبة تأخذني إليها بسحرها من أين تأتي هذه الرائحة الجميلة؟

نظرتُ إليها بحبٍّ أكبرَ من حبِّ الأم لطفلتها ضممتُها إلى صدري أرشقُ قبلاتي من على ملامح وجهها الصغير البريء كالياسمين، فاجأتني هذه الطفلةُ بكلِّ ما تحمله من اكتشافاتها البسيطة والكبيرة بمعناها، أيمكن أن تميّز مثلَ هذهالأمور بهذا العمر وبهذا الإحساس؟

كنتُ كلما أفتقد وجودها وأخيها بيننا أراها من الشرفة تسكن خميلةَ الياسمين آخذةً معها وليد لحديقةِ المنزللتلملمَ تلك الزهور من على الأرض، وكم رأيتُها وهي ترتفع على أصابع قدميها الصغيرتين لتقطفَ تلك الزهوروتعطيها لوليد الذي يأخذ ما تقطفه ليجمعَها بدوره حيث يقف منتظرًا أن تمدَّ له يدها الصغيرة التيلا تتسع للكثير، ويركضان معًا إليّ حاملينَ معهم عبقَالياسمين تسبقهم رائحتُه العطرة لأعرفَ بدوري أنهم كانوا في حديقة المنزل يصنعون لي ولجدتهم طوق ياسمين معبرين فيه عن كلِّ الحب الذي يحملونه لتلك الجدة التي تعلَّق قلبُهم الصغير بهاوبحضنها الدافئ ليأخذوا

منها مكافأة كبيرة من القبلات وضمة تحتويهما معًا بيديهاوهي تلفهم بسعادةٍ وغمراتٍ من فيضِ حبّها الكبير. ومرّت الأيامُ.... كنتُ قد قررتُ بعد وصولي دمشق ويعد دخولنا في المناقشات والحوارات والاجتماعات بإخوة زوجي ألّا أتصل بخالد حتى يتصل هو، لا أحبُّ أن ألاحقه باتصالاتي اليومية، وأشغلَ تفكيره وآخذَ من وقته وهو أحوج ما يكون إليه.

كان عصام مع والده بآخر مشروع سكني لهم، وهذاما شكّل عبئًا عليه في توقيع بعض الإجراءات. أخذتُ أفكّر بحلٍّ كي لا يتعطل العمل ولا يتضرر أحدٌ من ذلك كما كان خالد يفكر في تسهيل كلِّ الأمور لعصام، عدنا واجتمعنا مراتٍ، ماهر وفريدة وأنا مع عصام، وأجمعنا على أن نفعلَ ما يقرره عصام بكلِّ ما يطلبه وما يراه مناسبًا لهذا المشروع تحديدًا.

وكان قرارُه أن نعملَ له توكيلًا خاصًّا كما كان يعمل ووالده بحياته، فلا يُمكن تقسيم هذا المشروع، فالأرباح تأتي عند الانتهاء؛ وافقَ الجميع، وبقيت الأراضي والعقارات وبيت دمشق القديم،تُقسّم كما هو الشرع ومن يريد البيعيشتري الراغب من ضمن المجموعة وهذا شرط أساسي والكل أجمع عليه أيضًا؛ لكي لا تخرج أيّ ملكيةٍ من الأملاك لأحدٍ غريبٍ، أيضًا الكل رَحّبَ بذلك.

قال عصام: أنه حلٌّ مثاليٌّ، وأنا جاهز لو أحبَّ أحدُكم البيعَ. قلتُ لهم: خالد أيضًا يشتري فليس له أيّة مصلحةٍ حاليًّا في البيع ربما سيترك كل شيءٍ على حاله لحين عودته النهائية لدمشق، إنه يحبُّ هذا المنزلَ القديم ودائمًا يحكي لنا عن ذكرياته أيام الطفولة ويتذكّر والديه.

قال ماهر: ليكن مبادلةً بين بعض العقارات أو الأراضي لو أحبَّ أن يبادل بحصته بعد تقدير القيمة النهائية.

قالت فريدة: لاشيء يعز عليكم من ناحيتي الحصة الأصغر لي ولكم الحصة الأكبر، فمن أراد منكم شراء أيَّ حصةٍ لي أنا موافقة، لن أقفَ بطريق أحدٍ -أكيد -أما المشروع كما قال عصام ننتظر الانتهاء منه، وافقَ الجميعُ على أن يتم المشروع للنهاية بإشراف عصام.

وعُدتُ لأمي مع الأولاد مساءً وأخبرتني أن خالدًا اتصل، وهو يحاول الاتصال بك على المحمول دون فائدة خارج التغطية أومغلق، لقد جاء اتصال خالد بوقته لأخبرهعن كلِّ ما حدث معنا.

في الصباح كان أول شيءٍ فعلتُه هو اتصالي بخالد، وأول ما سَمِعَ صوتي،قال: حنان، أين أنتِ؟ شغلتني عليكم، لماذا لم تتصلي من أيام وأنت تعرفين أنني قَلِقٌ عليكم؟

لم يترك لي مجالًا لأقول أيّة كلمةٍ ..... أخيرًا قلتُ له: اطمئن كلنا بخير والكل هنا يسأل عنك ويشتاقون إليك،يجب أن تأتي لسوريا قريبًا ونأتي معك، الأولاد هنا مبسوطون جدًّا، وبالنسبة لموضوعِ الإرث والتقسيم...

قاطعني قائلًا: حنان أنا لا يهمني هذا الموضوع.. كلُّ ما يهمني وما أردتُهأن لا يتعطلَ شغلُ عصام، وأن يأخذ إخوتي حِصَصَهم ويتصرفوا بها كما يريدون، وكلُّ واحدٍ منهم يرى مصلحته لا أريد أن أكون عقبةً في طريقهم بسبب بُعدي عنهم وغربتي، وأنا الأخ الأكبرلا أستطيع أن أكون معهم وأشاركهم وأحمل معهم ما يحملوه من همومٍ.

قلتُ له: كلُّ شيءٍ بخير خالد وكما تريد.. اطمئن وطمنِّي عنك أنت.

قال: أنا بخير انتهى المؤتمر مساءَ البارحةِ عدتُ فورًا واتصلت بكِ مرات كثيرة وخطك خارج الخدمة، شغلتني عليكم، فاتصلتُ بأمك، متى ستأتي حنان؟ لندن كلها بدونك ضباب وسواد، البيت بدونكم باردٌكالثلج ويملؤه الصقيع.

قلتُ له: أيامٌ قليلة خالد سنُنهِي كلَّ شيءٍ، وأثبت الحجزَ على أول طائرة ونعود بإذن الله.

قال: حنان أنا لا أعرف ما يحدث معكم أنت وإخوتي، وافقي على كلِّ

اقتراحاتهم، واعملي التوكيلَ لعصام هو يعرف كيف يتصرف، أنا أثقُ بهم جميعًا، ولا أريدُ لأحدٍ أن تتعطلَ مصلحته بسببي، وعصام متفهم ويعرف السوق وحركته أكثر من الجميع.

عصام يأتي ترتيبه بعد خالد مباشرة وبعده ماهروفريدة، خالد يحبُّهم كثيرًا خاصةً، فريدةً آخر العنقود يظلُّ لها مكانة خاصة عند خالد مهما كبرت حتى بعد زواجها وبعد أن أصبحت أمًّا.

قلتُ له: كما تحب خالد...انتهى الاتصال وهو يؤكد ألّا أتأخر عن آخر الأسبوع، قبّلي الأولادَ، وسلّمِي على الجميع.

أخذتُ فنجانَ القهوة من يدِ جميلةَ والذي جاء بوقته، أخذتُ سيجارةً أنفث دخانها وأتابع حركتهاالبطيئة وهي تسير بشكلٍ عشوائيٍّ وتلف المكان آخذةً بعضَها تسحبها نسماتُ الهواء المنعشة.

دخلتْ أمي تسألني: حنان، ستكونين والأولاد معي على الغداء اليوم.

مضت أيامٌ لم أراكم فيها أريد أنأشبع منكم قبل السفر.

قلتُ لها: إن شاء الله أمي، وسامي أيضًا وزوجته وأولاده سنكون كلنا معك على الغداء اليوم ما رأيك ياأحلى أم؟

تابعتُ أرشفُ قهوتي، كان الفنجانَ الأول لهذا الصباح. قلتُ لأمي: سأترك الأولاد عندك، لديّ عملٌ مهم أقوم به، سأذهب لمكتب الطيران لأثبتَ الحجز غدًا لو تمكنت من ذلك، وأعود على الغداء أو قبل ذلك حسب الظروف.

لم تسألني إلى أين، تعودتْ ألّا تسألني خاصةً بعد زواجي بخالد، ولكنها قَلِقَةٌ عليّ... هكذا أحسستُها.

جهزتُ نفسي وخرجتُدون أن يراني الأولاد فما زالوا نيامًا؛ أخذتُ سيارةَ أمي، أدرتُ المحركَ، وذهبتُ لِيْ وجهة واحدة ومحددة، سرتُ في شوارع دمشق أقود السيارة لوحدي هذه المرة بعد غيابي سنوات طويلة. مشاعر كثيرة مختلطة ملأتني، وأخذتني لماضٍ أكره أن أذكره رغم أن اتجاهي كان إلى كلِّ الماضي حيث كنتُ أعمل، كان من الضروري أن أجددَ طلبَ الاستيداع أو أقدمَ طلبَ إنهاءِ خدمة أو استقالة، أيُّ من أحدهما سأفعل؟ لا أعرف لم أحدد بالضبط، وهذا الخيار كان يحيرني ويأخذ تفكيري دون الوصول لنتيجة، والأهم أن لا أشغل معي أمي وسامي كل فترة وأخرى لتجديد الاستيداع. يجب أن أنهي هذه الأمور، من يدري متى سأعود إلى دمشق بعد هذه الزيارة؟ وصلتُ الوزارةَ، ركنتُ سيارتي، وأخذتُ حقيبة يدي ودخلت، وضعتُ يدي على زرِّ المصعد لأطلبه وإذا بصوتٍ ورائي

مباشرةً يقول باستغراب: حنان، حنان بعد هذا الزمن!

تجمدتُ مكاني....من؟

آخرُ إنسانٍ أتوقعُ أن أراه أوأسمع صوته، لم أستدر.

سألتُ نفسي: أيمكن بعد كل هذه السنين أنأعود لألتقي به؟!

ألتقي بالماضي الذي أكره، ثوانٍ قليلةٌ وأصبح أمامي، رجلٌ لا أعرفه، كلُّ شيءٍ فيه تغيّر، غيّرته السنينُ والأيامُ، بحثتُ له عن مكانٍ بذاكرتي عن صورةٍ قديمة بخيالي لأجمعها مع صورته أمامي واقفًا، رددتُ مستغربةً بصوتٍ منخفضٍ: ناجي .. ناجي؟

مَدّ يده قائلًا: حنان، أين أنت كل هذه السنين؟

قلتُ لنفسي أخاطبها وأنا أتأمله بازدراءٍ وقرفٍ، أهو مجنونٌ هذا الرجل، أم أبله، أم ماذا به؟!

استدرتُ عائدةً من حيث أتيتُ، شدّني إليه بجرأةٍ غريبةٍ ووقحةٍ قائلًا: انتظري رجاءً.. قلتُ له: لو سمحت أتركني ليس بيننا أيَّ كلامٍ من سنين مضت، أنا نسيتُك تمامًا، ودفنتُ الماضي الذي يُذكّرني بك؛ لأنه الخطأ الوحيد بحياتي.

ردّ قائلًا: أنا هو الماضي الذي دفنته.

قلتُ له: أرجوك ابتعد عن طريقي لم نعد مراهقين صغارًا، أنا زوجةٌ وأمٌّ. ردّ بوقاحةٍ شديدةٍ: وأنا أيضًا زوجٌ وأبٌ.

قلتُ له: ماذا تريد إذًا؟! لماذا تعترض طريقي؟! لماذا تقف أمامي؟!

ردّ وكأنه مجردٌ من الأحاسيس ليس به أيَّ احترامٍ حتى لنفسه: أنا لم أنساكِ أبدًا.

قلتُ له: أنا نسيتُك تمامًا، ابتعد عن طريقي رجاءً.

لم أعرف كيف وجدتُ لنفسي ممرًا، أخذتُ منه طريقًا لا أستطيع أن أسمعَ المزيد والذي كان من المفروض ألّا أسمحَ له بالحديث معي، وألّاأسمع له ولا أيّة كلمة، ولكنه كان قد سدّ الطريق عليّ.أخذتُ أصعدُ الدّرجَ، وأخذتُ المصعد من الطابق الثاني وعلى عَجَلٍ غريب كأن أحدًا ورائي أهرب منه، متلاحقة ضربات قلبي هذه المرة خوفًا.

دخلتُ ديوان الإدارة وقدمت طلبَ استقالةٍ وضعتُه في بريد الوزارة، وغادرتُ لم أكلم أحدًا، لم أعرفْ أحدًا، الكلُّ قد تغيّر بعد هذه السنين، الوجوهُ غريبةٌ عنّي، ورأيتُ أنّ خيرًا ما فعلتُ وفي الوقت المناسب،

وحمدتُ الله أنني لم أراه وأنا أغادر مبنى الوزارة. استقليتُ سيارتي ذاهبةً إلى مكتب الطيران، أكدتُ الحجزَ لبعد غدٍ والسفر بعد منتصف الليل وصباحًا أكون مع خالد، كم أشتاق له، وكم أحتاجه!

في طريق عودتي إلى البيت سألتُ نفسي ماذا يريد مني بعد كلِّ هذه السنين، وماذا يتوقع أن تكون ردة فعلي لرؤيته، لقد مات بالنسبة لي من قبل ارتباطي بخالد بعد سنتين وأكثر من خروجه من حياتي، وأخذتُ وقتًا طويلًا،فكرتُ به قبل قرارَ ارتباطي بخالد، وتأكدتُ أنه ليس لوجوده مكان بحياتي أبدًا، أنا أُشدِّدُ على هذه الكلمة، توقفتُ.. أتُراني فعلًا أخرجتُه من حياتي؟ أجل... أجل خرجَمن حياتي وللأبد من سنين طويلة، وأنا اليوم أحبُّ زوجي وأولادي وعائلتي، وصلتُ البيت مُتْعَبَةً من كلِّ شيءٍ حولي، أتعبني لقائي به، هزني خوفًا ورعبًا، قالت أمي: حنان ماذا بك؟! لستِ على بعضك، ما الذي حصل لك؟

الأم....وقلب الأم...وإحساس الأم....يارب تخليلي هذه الأم ماذا أفعل بدونها.

قلتُ لها: أنا متعبةٌ أمِّي وحزينةٌ، حكيتُ لها ما حَدَثَ معي دون أن تُلِحَّ بسؤالها لتعرفَ من رأيتُ وماذاقال لي.

كنتُ أتحدّثُ معها كصديقةٍ قديمةٍ احتاجها لأفضفضَ لها، فهي الوحيدة التي تفهمني وتعرف الماضي كله، أخبرتُها أنني ذهبتُ لأقدمَ استقالتي من الوزارة، لا أريد العودة لهذا المكان أبدًا، والحمد لله كلُّ شيءٍ كان سهلًا.

فعلتُ ذلك لأنني أتعبتُهم معي هي وسامي بتقديم الاستيداع كلَّ مدةٍ على أملٍ أنْ نعود لسوريا، والظاهر أن ذلك لن يحدث قريبًا.

سبحان الله رؤيتي له كانت ضرورية لآخُذَالقرار وأُنهِي عملي، كلُّ كلامي جاء متدافعًا وأمي صامتةٌ تتأملني وتنظر إليّ مندهشةً وكأنها تراني لأول مرة وهي تبحث بين كلماتي وانفعالاتي عن شيءٍ تخافه، تخاف أن أقوله، شيءٌ آخر لم تسمعه مني ولم أقوله لها أو أذكره، تخاف أن يكون بداخلي ما زال. لكنني فهمتُ من صمتها وتأمُّلها لي وإصغائها كما تفهم هي عليّ.

تابعتُ قائلةً: ودموع كثيرة تملأُ عيوني ليس بصمتٍ هذه المرة، بل وجدتْ لنفسهاطريقًا كان مسدودًا لتسير به، أمِّي، لا.. لا لم يعد له مكان أو أي وجود بحياتي من زمن طويل، اطمئني أميليس له مكان من قبل ارتباطي بخالد،أُقسم لك أمي إنه من الذكريات التي لا أحب تفاصيلها ولا تشكِّل لي سوى جرح أَخَذَ يَنْدَمِلُأوانْدَمَلَ بالتأكيد، ومع الأيام سيأخذُ طريقَه للزوال النهائيِ،أعتقدُ أنه انتهى بهذا اللقاء المفاجئ.

اقتربتْ أمي وحضنتني، أخذتني بقوةٍ إلى صدرها الدافئوحنانها، وكم كنتُ أحتاج لحضنها وحنانها ورائحة أمومتها تشفيني من كلِّ أوجاعِ الماضي؛ لتعطيني جرعة من الحبِّ الذي أحتاجه بغياب خالد؛ لأقوى به على ذاتي ونفسي.

شعرتُ بضعفي ووحدتي بدون خالد،كم أحتاجه.. كم أحتاج حنانه يأخذني بهما بعيدًا عن هذا المكان وعن كلِّ هذا العالم، أحسَسْتُ بأمي وبما تفكر دون أن تقول شيئًا، لَفَفْتُها بدوري، وأنا أقول: اطمئني أمي لم يعد له مكان. أنا متأكدةٌ من مشاعري، انتابني شعور الخوف على خالد وأولادي منه، أحسستُه ذئبًا سيفترس كلَّ شيءٍ جميلٍ بحياتي، أكره أن أراه، أكره أن أسمعَ أيَّ شيءٍ عنه حتى أنني لم أعرفه في البداية، صوتُه تغيّر سمعي له، لم أعد أميزه، رائحةُ عطره لم أعد أشمها، لم تعد تأخذني كالماضي،كلُّ شيءٍتغيّر أمي....تغيّر، وأنا..أنا تغيّرتُ...تغيرتُ ولم أعد تلك الصبيةُ المراهقة الصغيرة...لا...لا أمي بحياتي رجلٌ واحد هو خالد زوجي وحبيب عمري كله.

أنا واثقةٌ أنّ شيئًا لم يبقَ كما كان برؤيتي له اليوم تأكدتُمن ذلك، انتبهتُ لما أقوله بإسهابٍ، أتُراني أقنع أمي بهذا، أم أقنع نفسي مؤكدة لها أنني أقوى من أن أضعف أمامه من جديد؟!

مدتْ أمي يدها بحنانٍ ومسحتْ دمعةً غسلتْ بها كلَّ الخوفِ الذي سَكَنَروحي لثوانٍ قصيرة وهي تقول: أعرف حنان، أعرف أنكِ أقوى من الماضي بكلِّآلامه، أعرف أنّ الحاضرَ هو زوجُك وأولادك هم الأغلى، هم الأمل والحب الذي تعيشين لأجله، وليد ونهى، وخالد رفيق عمركِ وتوأم روحكِ.

- أجل... أجل أمي، ما أجملك وأنت تقرئين عني نفسي بحبك وإحساسك بي! جاءني صوتُ وليد يصرخ مناديًا: مامي...مامي أين أنت تعالي خذيني إليك.ركضتُ إليه وأمي ورائي، دخلتُ غرفتي القديمة في بيتِ أهلي التي عدتُإليها بعد عودتي وسكنتُها من جديد كما سكنتني بكل الماضي وذكرياته.

دخلتُ لأرى وليد مستلقيًا على سريري، مدّ يديه إليّ عندما رآني، تابَعَ: أمي، أحبكِ لا تتركيني وحدي، ضميني.. ضميني إليكِ وقبليني، لماذا ذهبتِ وحدكِ ولم تأخذيني معك؟ وكأنه كان يسمع ويفهم!

ضحكتْ أمي قائلة: بدأ هذا الرجلُ الصغير يحاسبك ويَعُدُّ خطواتك بدلَ أبيه. قلتُ لها ضاحكةً بدوري وأنا أحملُه وأقبّلُه: هذا روحي، هذا حياتي، هذا عمري كلُّه، وبضمتي له استعدتُ شيئًا من ذاتي لأحتميَ بطفولته وأقوى بها.

قال: مَن.... من؟

قلتُ له: أنت.. أنت حبيبي وعمري، كيف أترك روحي؟ كيف أترك هذا الحبيب الصغير الذي بدأ يحاسبني مُتابِعَةً تقبيلي له من كلِّ مكانٍ من جسمه الصغير البضِّ وهو لا يتجاوز الثلاث سنوات.

ما أجمله! ضمتي له تُساوِي العالمَ كلَّه، ما أجمله من إحساسٍ رائعٍ وهو يَلُفُّ رقبتي بيديه الصغيرتين، وشعره الأشقر المبعثر يَتَهَدّلُ على جبينه،وعيناه العسليتان الجميلتان كوجهِ أبيه.

آهٍ، كم أحبُّكَ يا وليدي الصغير، وكم أشعر بكَ قطعةً من روحي ومن والدكَ الحبيب، كم أشتاق إليه وأحتاجه أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

سألتُ أمي: أين نهى، لم أسمع لها صوت حتى الآن.

ردت: مازالت نائمةً، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحًا، ونهى بعد مجيئنا لسوريا أخذتْ مكانًا لها مع جدتها بغرفتها تنام وتَلُفُّها.

وليد ينام معي لا يتركني وكأنه يشعر بغربةٍ بعيدًاعن والده.

سمعتُ أمي تنادي جميلة وتطلب منها تحضيرَ الفطور وتجهيزَ الشاي بسرعةٍ، ودخلتْ لِتوقظَ نهستأخذ منها وتُعطيها قُبلاتِ الصباح،يومٌ جديدٌ

مشرقٌ بالأمل.

لا بُدَّ أن يَصْدَحَ صوتُ فيروز ليعلنَ عن يومٍ جديدٍ بنغمٍ هادئ، يتسللُ مع نسمات الصباح الباردة المنعشة.

ياحلو شو بخاف إني ضيعك

وتروح مني ب ها الطريق .. ب هاالدني

ياحلو شو بخاف إني أسألك

كنك بعد بتحبني قد البحر .. قد الدني

ساعة إذا مرت ما شفتك بها

شو بشوف حالي صغيرا...وحدي ب هاالدني

خدني على قلبك معك

دخلك بخاف ... بخاف إني ضيعك

أخافُ أن أضيعَ وأخسرَ أجملَ شيءٍ بحياتي خالد واحتياجي وحبّي له. واجتمعنا على الفطور وقبلات نهى، ووليد يغار منها ويعود ليقبلني من جديد،وصوت فيروز ما زال يهمس لي بالحبِّ القادم، وحب أمي ورعايتها

لنا وحنانها، وهذا الشاي الساخن يعطيني مزيدًا من الحرارة والدفء اللذيذ،ويمدني بالحب نبضًا وأملًا؛ لأنتعش من جديدٍ وأرشفه وأنا أتأمل أولادي، حياة عمري كلها.

ها هي أمي كما عوّدتني تهتم بهم وتطعمهم بيديها، وكل طلباتهم تتحملها منذ وصولهم، لم تترك لي شيئًا لأهتمَ به.

سألتُها مرة: أمي، أنت تُتعبينَنفسَك معهم ويتعبونك.

قالت: اتركيني أشبع منهم بهذه المدة القصيرة بعد تعوُّدي عليهم وتعلُّقيبهم، نَسِيتْ أولاد سامي.

رنّ الهاتف، ردتْ جميلةُ، قالت: السيد عصام.

أخذتُ السماعةَ منها: أهلًا عصام..... صباح النور.

سألني ماذا جدّ معي؟

قلتُ له: لا شيءَ أنا جاهزةٌ لكل ما تطلب وما تراه مناسبًا نحن موافقون عليه، وقد أخبرني خالد البارحةَ أن أعملَ لكَ توكيلًا(كما كان الاتفاق بينكما) لتنهي الأمور المعلقة ويتم سير العمل كما لو كان الوالد موجودًا.

ردّ عصام: أوكي... أين تريدين أن نلتقي؟

قلتُ له: لو تأتي أنت ونأخذ القهوة معًا هنا عند أمي.

قال: لا مانع لدي سآتِي في المساء، وأَقْفَلَ الخطَّ.

قلتُ لأمي: حمّلتُ نفسي أكثرَ ممّا أستطيع، أتمنى أن نُنهِي اليوم كلَّ شيءٍ فغدًا مساءً سيكون سفرنا لم يعد لديّوقتٌ، وخالد ينتظرنا.

أشتاقُ للهروب من كلِّ البشر، أسكُنُ بقايا القصص،أكون بعضَ الياسمين وبعضًا من أوراق الشجر،تأخذني رياحُ تشرين مُحَمّلَةً بالحنين مرةً نحوَ البعد ومرةً نحوَ القدر، إلى حضن زوجي ودفء عائلتي.

في المساء جاء عصام ومعه المحامي وكاتبُ العدل، مضيتُ كلَّ الأوراقِ التي طلبها على الاتفاق الذي دار بيننا جميعًا.

اتصلتُ بفريدة وماهر،أخبرتُهم أننا ننتظرهم على العشاء، أمضينا سهرةً لطيفةً في بيتِ أمي, وأصبحت صداقةً تربطنا كعائلتين معًا: أهل زوجي وأهلي، والأولاد في سعادةٍباجتماعاتهم مع بعض، أينما نكون يوجد الجميعُ كبارًا وصغارًا، كانت سهرةً طويلة جمعتنا قبل سفرنا، سهرةَ وداعٍ على أن نلتقي غدًا في المطار.

في صباح اليوم التالي كان يوم السفر، جهزتُ وجميلةُ حقائبَ السفر وأغراضَنا، لم يعد شيءٌ بمكانه. أصبح البيتُ كلُّه فوضى، وجميلة تُرتّبُ هنا وهناك، وأمي حزينةٌ لسفرنا.

قالت: كيف سأعود لحياتي بعد أن تعوّدتِ على وجودك والأولاد، تعلّقتُ بهم، وليد ونهى سأفتقدكم كثيرًا.

كلامُها جَعَلَ غصةً بقلبي، آلمتني.
قلتُ لها: أمي، لا تقلقي سأتصلُ بكِ دائمًا، وأتمنى أن تأتي للإقامة معنا بلندن، ونعوّض تلك الأيام وتكون زيارة طويلة نعود بعدها كلنا إلى سوريا، ما رأيك؟

أخذتُ أضُمُّها وأُقبّلُها واختلطتْ دموعُنا معًا وأنا أقول لها: أمي، عِديني بأنّكِ ستأتي قريبًا.

ردّت: مَن يدري حنان قد أفعل ذلك بعد تعلُّقي بأحفادي.

وجاء سامي، وجهزتْ جميلةُ الحقائبَ بالسيارة وذهبنا المطارَ وأمي معنا تعطيني توصياتها طوال الطريق إلى أنوصلنا، تعلّق بها وليد ونهى، كلُّ واحدٍ منهم يُمسِك بيدٍ.

التقيتُ الجميعَ وهم ينتظرون لِيُوَدِّعُوني والأولاد، أهل زوجي وأهلي. كانت سعادةُ الأولاد لا تُوصَفُ عندما وصلنا المطار، والتقينا بهم من جديدٍ. دهشةُ وليد ونهى لكلِّ هذا الحبِّ والاهتمام الذي يحيط بهممن أهل والدهم وأهلي، إنه حبُّ الأهلِ والعائلة الذي نفتقده بالغربة.

وَدّعْنَاهمودخلنا لانتظار الإقلاع بعد أنْ انهينا كلَّ الإجراءاتِ، لم نشعر بطولِ المسافة،كان شوقُنا لخالد والوصول إليه يُهوّن المسافةَعلينا، وعدنا لخالد.... عُدنا إلى الحضن الدافئ والقلب الكبير.

استقبلني خالد في المطار أول ما خرجنامن قاعةِ الوصول، عندما لَمَحَتْهُ عيناي، تركتُ الحقائبَ وركضتُ إليه والأولاد معي، ثلاثتنا تعلّق به.. ضمَّنِي إليه، يُقبّلُني والأولاد، كلُّ واحدٍ يُمسِك بهمن جهةٍ حتى أخذهم

بحضنه الاثنين معًا، كم نحبك! وكم نفتقدك طوال فترة السفر!

نَظَرَ إليّ خالد بحبٍّ وشوقٍقال:حنان هذه آخر مرة تتركيني فيها وحدي...بدونك لن أستطيع العيش ولا يوم واحد.

كان لقاؤنا غريبًا ليس لنا سوى خالد، العلاقاتُ هنا محدودةٌ بشكلٍ غريبٍ مهما كانتقوةُ العلاقةبين الأصدقاء ليست كما نحن العرب، لكل شيءٍ حدودٌ هنا،وكلُّ شيءٍ محسوبٌ حتى أوقات اللقاءات محدودةٌ، فالعمل يأخذ كلَّ الوقت وكل الحياة.

على الرغم من أن أصدقاءنا كثيرون، فالحياة هكذا فيها برودٌ للعواطف والعلاقات الإنسانية، كان الوقت صباحًا والضبابُ الكثيف يَلُفُّ المدينةَ الكبيرةَ الضخمةَ الهادئةَ نوعًاما، هنا ليس كدمشق، مودةُ الحياة بدمشق ودفءُ العلاقة بين الأهل والأصدقاء هي الشريان الذي ينبض لهذا الشعب وهذا البلد.

سألتْ نهى: بابي، أليس لنا أحدٌ هنا كما بسوريا؟

ضَحِكَ خالدو أجابها حبيبتي نحننعيش هنا حياة تختلف، وأنا مبسوط منك؛ لأنك عدتِ من السفر وأشياءكثيرة دخلت قلبك الصغير وغيّرته وزَادَتْهُ حَمِيمَةً لجوّ الأهلِ والأصدقاء.

تَابَعَ: حنان لم أعرف ماذا أفعل وأنتِ بعيدةٌ عني، كان ردي له ابتسامةً فيها الكثير من الشوق والامتنان لكل هذا الحب الذي يَخُصُّنِي به زوجي وحبيبي. أخذنا طريقَنا ونحن نتابع الأحاديث إلى حيث سيارة خالد في طريقنا إلى بيتنا، إلى الدفءِ الذي يملؤه الحبَّ والأمان.

ما أحلى الرجوع إليه! ما أحلى الرجوع إليك خالد ولحياتي معك! لم يكن اليوم هو يوم عطلة بالنسبة له من المشفى، ولكنه ترك كل شيءٍ للقائنا،ولأول مرة أراه يترك عملَه، بَرّرَ ذلك بأنه أمضى ال٤٢ الساعةالماضية في ضغطِ عملٍ شديدٍ، وأَخَذَ دورَ طبيبٍ آخر حتى يتفرغ لنا بالكامل بعد هذا الغياب الطويل، ولا يكون لي مجالٌ لأقول له أن كل هذا الاشتياق فقط لوصولنا.

وصلنا البيت، دخل الأولادُ غرفَهم ليرتبوا هداياهم التي جلبوها معهم، دخلتُ وخالد يسحبني من يدي؛ ليريني مفاجأةً حضّرها في غيابي، فتح حقيبتَه وأعطاني أوراقًا لأقرأه.

لم أصدق....لم أصدق أن خالدًا مهتمٌ كل هذا الاهتمام لعملي، إنه بغيابي ومن مدةٍ يشتغل على هذا الموضوع أن يأخذ لي مكانًا بعقد إيجار ليكون مدرسةً صغيرةً لتعليمِ العربية بدلًا من غرفةٍ بالمنزل التي كنت أستعملها لتتوسع دائرة العمل.

نظرتُ إليه، لم تسعفني الكلماتُولا النظراتُ، خانتني حتى عيوني في التعبير، كيف باستطاعتك أن تدهشني هكذا بحبّك وطريقة التعبيرعن حبك لي، أيُّ رجلٍ أنت؟!

خالد، كم أحبك! وكم كنتُ أعاني من هذا الموضوع،كنتُ أشعر أن هناك ضغطًا على المنزل وعدد الأولاد يزداد ولا أستطيع أن أرفض أحدًا؛ لأني أرحّبُ بالجميع وسعيدة بهذا التوسُّع وازدياد العدد.

أخذتُ أُقبّلُه قائلةً: قُبَلُ العالمِ كلِّه لا تعبر لك عن شكري وسعادتي بك، أنت رائعٌ بإحساسك لما أحتاج....قاطعني قائلًا: وهناك أيضًا مَن يحب أن ينضمَ إليك ويكون معك، إنها زوجة الدكتور وائل، تحمّست للفكرة بعد أن رأت كلَّ العائلاتِ العربية تطلبك لتعليم أولادهم اللغة العربية، القرار حنان لك في الموافقة أو الرفض.

قلتُ له: طبعًا أرحّب بذلك؛ لأني أحتاج فعلًا لمن يساعدني,أصبح المكانُ أوسعَ، تُرى كم قاعة؟ كم هي المساحة ؟ ردّ قائلًا: اطمئني هناك ثلاثَ غرفٍ بالإضافة لغرفة الإدارة, غدًا سنذهب لنراها معًا، فهي ليست بعيدةً، اخترتُها قريبةَ قدرَ الإمكان من المنزل، مسافة قصيرة بالسيارة ونصل. بعد أن انتهينا من ترتيبات ما بعد السفر والأحاديث الكثيرة التي غابت عن خالد، الهدايا والأغراض الكثيرة التي أرسلها إخوة خالد، وهدايا أمي

وأخي، هدايا الأصدقاء كلُّها كانت من سوق الحمدية والصالحية، هدايا معبرة عن دمشق، تاريخها وعراقتهافي الصناعات اليدوية العريقة التي تختص بها. أخذنا الأولاد وذهبنا لتناول العشاء وأمضينا أمسيةً جميلةً بعد غيابٍ طويل عن خالد، عُدنا للبيت، كان يومًا شاقًّا ومتعبًا ولذيذًا بكلِّ ما فيه من جهدِ السفر والمفاجآت.

بعد نوم الأولاد وخالدجلستُ وحدي في الصالة أفكِّر به، يالهذا الرجل! دائمًا يفاجئني ويقول لي بعد كل مفاجأة أن للحبِّ طرقًا كثيرةً مختلفةً نستطيع من خلالهاالتعبير عنه لما بداخلنا من مشاعر الحب.

دائمًا كنتُ أقول لنفسي: لو كان باستطاعتنا تحقيقَ ما نحلم به ونتمنى لكان للحياة طعمٌ مختلفٌ. كأن خالدًا كان يقرأ أفكاري ويسمعني، فأنا لم أخبره يومًا بأنني أتمنى أن يكون لي مكانٌخاصٌّ أعمل به لمواصلة تعليم اللغة العربية, لم أنتبه أنه يهتم من البداية ويقرأ أفكاري،ولم يتركني أشعر باهتمامه.

أولادي يتكلمون العربية بطلاقة ويكتبونها بتميزٍ، عندما طَلَبَ أصدقاء لنا تعليم أبنائهم مع أولادي ورَحّبْتُ بهم، خالد كان صامتًا لم يُعطِ رأيه ولم يعلقْ.بدأَ العددُ يزداد، واليوم لا أعرف ما معنى أن يُخصِّصَ لي مكانًا، وهذاأمرٌ ليس سهلًا عليه، وبدأتِ الأفكارُ تأخذني لمحطاتٍ كثيرةٍ من السلبية.

أيزعجه أن أشغل غرفةً بمنزلنا لذلك، أم أنه فعلًا يريد أن يسعدني مُرَحِّبًا ومُعَبِّرًا» عن شكرهبإعجابٍ لما أفعل؟!

إنها أسئلةٌ تُراودنا دائمًا عندما يكون الآخر يحمل كلَّ هذه الصفات الجميلة والإحساس بنّا، فيبدأ الشك، أيمكن ....؟! أهي المرأة دائمًا عندها ذلك الشك عندما يكون الرجل متفانيًا ومخلصًا لها؟

نحن بالنهاية بشرٌ، وأنا امرأة، والمرأة بشكلٍ عامٍّ تبحث بين الكلماتوالفواصللتصرفات زوجها الإيجابية قبل السلبية تريد تفسيرًا، تشكك بنواياه رغم معرفتها الأكيدة له وصدقهلعشرتها معه!

لكنها المرأةُ... المرأةُ بكلِّ تكوينها الغريب..والتي لا يمكن أن تمررأيَّ تصرفٍ خاصةً إذا كان لصالحها بدون أن تُحَلِّلَ وتُرَكِّبَ لتقتنع، هكذا كونتها الحياةُ، وهكذا هي أمامَ الرجل!

أنا بالنهاية امرأةٌ أملك كلَّ الصفات السلبية والإيجابية التي تملكها أيّة امرأةٍ وزوجة، لستُ مُنَزَّهَةً عن الخطأ والشك في تقديري لكل تصرفات خالد وقراراته بعض الأحيان، ولكن لا .... لا ... خالد يحس ويشعر ويقدر كم هي الفكرة والعمل هادفٌ وقيمٌ وإنسانيٌّ.

الفكرة بحد ذاتها جميلة ورائعة حين نساعد في نشر لغتنا العربية.أخذتْ

أفكاري التي عرفتْكيف تأخذ طريقًا للاستقرار على شيءٍ واحدٍ، هو أن خالد يشجعني بكلِّ ما يستطيع، ولكن بطريقته وإحساسه.

دخلتُ غرفةَ النوم لأتسللَ بهدوء إلى السرير كي لا أوقظه، ورحتُ في نومٍ عميقٍوأنا أَلُفُّهُ بنظراتي الناعسة التي تتوق للنوم بحضنه الدافئ.

آهٍ من الذكريات!

أليست تلك الكراكيبُ الصغيرة من الأشياء التي نحتفظ بها في أدراج مكاتبنا وأماكننا الخاصة جدًّا وحقيبةِ يدنا،أليست هي ذكرياتنا؟! أليست هي التي تأخذنا إلى أماكنَ خاصة من القلب، قلب الذاكرة ونبض الروح وأنين الجسد؟!

أجل.. للذاكرة عنوانٌ وقلبٌ ينبض ويحس ويشعر بلهفةٍ حين تتسارع ضرباته كلَما شدتنا خيوطُ الماضي إليه.

بعد مُضِي سنتين أو أكثر لمدرستنا الصغير ة والتي أسعدتنا جميعًا، وحقّقت نجاحًا كبيرًا ومُبهِرًا بين المُغتَرِبين، وانضم إليها عددٌ لا بأسَ به من الطلاب العربمن كلِّ الجنسيات وبأعمارٍليست صغيرة. أصبحنا مجموعةً من المدرسين نُعطِي هذه اللغة ونوصلها لأولادنا شبابًا وصغارًا بأعمارٍ مختلفة.كان هناك دفقٌ كبيرٌمن المغتربين لِتَعَلُّمِ العربية الصحيحة.

كنتُ بدوري المسؤولة عن كلّ هؤلاء وعن الإدارة بشكلٍ خاصٍ. كلما ازداد العددُ كلما ازدادتْ فرحتي ومسؤوليتي وسعادتي رغم المبالغ الرمزية والصغيرة جدًّا مقابل ما نقدمه ونعطيه والمصروفات التي كانت تتطلبها منّا هذه الأمور الكبيرة جدًّابالمسؤوليةشاركنا بعض الأصدقاء والصديقات في المساهمة وفي إعطاء الدروسليتخرج الطالب وهو يتقن العربية بشكل جيد، كان هذا أقصى ما نسعى إليه على مدار السنين التي مرّت ونحن مستمرونبالنجاح والجالية العربية كلها سعيدة بذلك.

إلى أن كان يومُ الفاجعة...أجل أقول الفاجعة التي حدثت في ١١ أيلول، التفجير الذي حدث لبرجيْ التجارة العالمي بنيويورك،كان ضربةً لكل العرب المغتربين في دول أوروبا والعالم الغربي.

هَزّنَا ذلك الحدثُ إلى أننا كُنّا نخاف على أولادنا من كثرة المضايقات والتحرشات التي تضغط علينا في وصفهم لنا بالإرهابين كلما صادفونا بالعمل أو أماكن التسوق أو غيرها من التجمعات والمدارس والجامعات، في كلِّ مكان يكون فيه عربيٌّ حتى كان يومٌ بعد ذلك الحَدَثِ الفظيع، كان صباحًا قاسيًا ومؤلمًا بكلِّ ما فيه، ومن حبِّ الله لناأنني ذهبتُ قبل الافتتاح الصباحي ككلِّ يومٍ، والتقيتُ بالمسؤول الذي يأتي كلَّ صباحٍ قبل حضورنا والطلاب.

هالني ما رأيتُ.... رأيتُ كيف يكونُ الحقدُ والكُرْهُ في قلوبٍ عمياءَ عن كلِّ ما هو إنساني حين يخرج من النفوس الحاقدة أفعالًا وأعمالًا، رأيتُ أنقاضاًأنقاضَ الحقد والإرهاب، رأيتُ تلك المدرسةَ الصغيرةَ التي تَعِبْتُ كثيرًا حتى وصلنا لما نحن عليهمن نجاح أصبحتْأنقاضًا، مكانًا لا تعرف له هُويّة.. مُحَطَّمٌ، مُدجَّجٌ، مُكَسّرٌ، مُنْهَارٌ لا بناءَ ولا أيَّ شيءٍ يدلُّ على نوعية المكان سوى حُطامٍ وأنقاضٍ.

صُعِقْتُ، لم أقترب، هالني ما رأيتُ لا يمكن للإنسانية أبدًا أن تكونَ هكذا، أليس هذا إرهابًا؟! أليس حقدا؟! وحقدًا أعمى.... ماذا يعني كل هذا؟! جمّدني ما رأيتُ، لم أعد أعرف ماذا أفعل بمَن أتصلُ، لمن أصرخ! اتصلتُ بخالد قبل أن أتصلَ بأيّ أحدٍ، مِن نبرةِ صوتي عَرَفَ أنّ هناك كارثةً حصلتْ لي، ولكنه لم يعرف ما هي إلى أن وَصَلَ. تجمّد الدمُ في عروقه وهو ينظر للمكان، ركضتُ إليه أدفنُ رأسي بصدره؛ لأحتميَ بحضن عربيٍّ يبعدني برائحته عن كلِّ ما حَصَلَ وأنا أنتفضُ وأقول له: خالد أرأيت! ضمّني ودموعٌ تتساقطُ من عينيه بَلّلَتْ وجهي ويداه تَرتَجِف وقال: اهدئي حنان ....اهدئي..أخذني من يدي وركبنا سيارته وذهبنا.

بعد صمتٍ قال لي: حنان، لا أعرف ماذا أقول! أنا مصدوم، الصدمة هزّتني.لماذا هذا المكان بالذات؟ لماذا هذا العنوان؟!

قلتُ له: العنوانُ عربيٌّ، والهُوية مسلمٌ ومسيحيٌّ، وكل الأديان السماوية يجمعها هذا المكان بلسانٍ واحد لسانِ الضاد، بلسان الضاد يتواصل المغتربون مع بعضهم بعروبتهم، المكان أصبح تجمُّعًا عربيًّا، وعنوانُه عربيٌّ.

اجتمعنا كلُّ الأصدقاء العرب والمشاركين معنا، وقرّرنا أن نتابع حتى وإن كنا سنعود للبداية إلى نقطة الصفر ونبدأ من جديد، كلُّ مُدَرّسةٍ تأخذ مجموعةً إلى منزلهاحتى تنتهي هذه الفترة القاسية علينا جميعًا.

وهكذا كان...عدتُ لمنزلي لأتابعَ من جديد مجموعةً بعد مجموعةٍ وجيلًا بعد جيلٍ طالما أعيشُهنا بلندن، وفيها عربٌ يحتاجون للغة العربية لتكونَ جسرًا لتواصلهم مع وطنهم العربي بلغتهم العربية. ومضت سنوات ونحن المغتربين نعاني من هذا الاضطهاد والمعاملة السيئة والمسلمين خاصة، وتصنيفهم لنا بالإرهابيين ممّا زَرَعَ في قلوبنا شيئًا من الخوف على أولادنا في مدارسهم وجامعاتهم، أثارني ذلك بشدةٍ بعد أن أصبحتْ نهى بسنواتها الجامعية الأولى لكلية الفنو ن التشكيلية. كانت تحكِي لنا ما يحدث معهم وزميلاتهم وزملائهم العرب والمعاملة التييتعاملون بها من قِبَلِالطلاب الأوربيين وطاقم التدريس. مضت السنةُ الأولى وجاءت الثانيةُ، كنتُ أشعر خلالها أنّالضغطَ النفسيَّ الذي كانت تعاني منه نهى قد خفَّ، أو بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًاإلى أن جاءتني ذاتَ يومٍ تقول:

- مامي، في نهاية هذا الشهر سيكونهناك معرضٌ للفنون التشكيلية لطلاب الجامعة وشاركتُ به، شجّعتني المعيدةُ التي تُدَرِّسُ لنا مادةَ الرسم السريالي والتشكيلي، وأنها تحضر لذلك من بداية الشهر وأنها الفرصة التي تحلُم بها.

سألتُها: كيف....كيف اختارتك هذه المعيدةُلتكوني من بين الفريق الذي سيشارك بالمعرض؟

قالت: مامي، هي مِن أصلٍ عربيٍّ، جلستْ معنا ونحن في قاعةِالرسم والنحت أنا وزميلات وزملاء عرب, أخبرتنا أنها تنحدر مِن أصلٍ عربي مغربي لجدٍّ لها. قلتُ: نهى يا ابنتي لم أعد أثق، أخاف عليكِ ونحن تحت هذه الظروف القاسية وغدًا وليد عندما يدخل الجامعة لأيّ كليةٍ سينتابني خوفٌ عليه أكبرَ ممّا هو اليوم، تعبتُ من القلق عليكم أنتم الثلاثة.

قالت ضاحكةً: مامي، أرجوك.. أين كلامُك لنا دائمًا أنه لا يصيبنا إلّا ما يكتبه الله لنا، طمني بالك، وخلّي ثقتك بالله كبيرة، إنها الحياة أمي فلا داعي لهذا القلق.

ضحكتُ معها وهي ترِدّدُ كلامي لوالدها أو لأيّ صديقةٍ عربية حين تشكو لي خوفَها وهمَّها من الظروف التي حولنا وتمر بنا. آهٍ يا ابنتي كبرتِ إلى الدرجة التي أصبحتِ فيها تُرِدّدِينَ ما نقول.كبر الأولاد ولم يعودوا صغارًا

وبدؤوا في أخذِ الكثير من صفاتنا وليس فقط ملامحنا. وجاء آخر الشهر والوقت المحدد للمعرض الذي حدثتني نهى عنه، أرسلتْ لنا بطاقاتِ دعوةٍ. اتفقتُ وبعضُ الصديقات المدعوات أن نلتقي في قاعة العرض.في اليوم المحدد ذهبتُ ووليد مررنا على خالدٍ بالمَشْفَى وذهبنا معًا، نحن في ترقُّبٍ وتوتُّرٍ وخوفٍ، كلانا صامتٌ لا نعرفُ النتائجَ كيف ستكون ..أول اجتماعٍ عامٍّوشاملٍ بمكانٍ وموقعٍ أكاديميٍّ مهمٍّ.

عند وصولنا التقينا بأصحابنا وأصدقائنا، كان معرضًا مدهشًا في كل المعروضاتوالرسومات والمنحوتات بفنٍّ راقٍ وغريبٍ.

لمحتُ نُهى مع مجموعةٍ من أصدقائها وبعض الصحفيين والمسؤولين من رَسّامِين ونحّاتين وبروفسورات وأساتذة ومعيدين، جمهرة كبيرة لفنٍّ راقٍّ.

حاولتُ الاقترابَ من نُهى رَفَضَ خالدقائلًا:

- اتركي لها فرصةً لإثبات ذاتِها، نُهى فتاةٌ ذكية مندفعةٌ لدراستها وعملها، إنها تحب ما تفعل، وذلكيأخذ كلَّ وقتها، ألم تلاحظي ذلك من قبل دخولها لتلك الأكاديمية؟ ألم تلاحظي ميولَها الفنية للرسم والنحت؟

قلتُ له: أجل خالد....أجل أعرفُ وعرفتُ، ولكنني ... لكنني أريد أن أكونَ قريبةً منها بمثل هذا اليوم.

تَرَكَنَا وليد ونحن نتابع حديثَنا وأَخَذَ له طريقًا بين المجموعاتليلتقي بأصدقائه مُعتَذِرًا بالانسحاب، بقيت وخالد ينظر كلٌّ منّا للآخر وضحكنا على حالنا, أَمْسَكَ بيدي ومشينا معًا لنشاهدَ المعرضَمن بدايته وحتى نهايته ونسلِّمَ على الأصدقاء هنا وهناك، انحناءاتٌ كثيرة لهذا وذاك.

وشَارَفَ المعرضُ على الانتهاء، ورأيتُ نُهى قادمةً باتجاهنا إلي أنْ وصلتْ، كان خالد قد أَخَذَ جانبًا يدردش فيه مع صديقٍ له.

تركتُ صديقاتي وأنا مشدودةٌ بكلِّ كِياني لنهى وهي تقترب مني ومعها المعيدةُ، قبلتني قائلةً: مامي، أُقدِّمُ لكِ مسز جيني.

مِن ثم قالت: مسز جيني،أقدم لك حنان.. صديقتي وأمي، وضحكتْ متابعةً: أمي تلك هي المعيدة التي حدثتُكِ عنها.

سلّمنا على بعضٍ، رأيتُ فتاةً في منتصفِ الثلاثين اتجميلةٌ وهادئةٌ، ملامحُها العربية تُوحِي برسامةٍ، أصابعُ يديها تقول ذلك.

قالت لي: مدام حنان، أهنِّئك بنُهَى وتميزها وحسن اختيارها لدراستها، ستعرفين بعد دقائق قليلة مَرْتَبَةَ نُهى، ستحوز على ترتيبٍ جيدٍ لهذه المسابقة ولهذا المعرض والاحتفالية.

بعد دقائق قليلة بدأ إعلان النتائج للفائزين للطلاب المشاركين..وعميد الكلية وبعض المدرسين والأعضاء المختصون بدؤوا بإعلان النتائج، كان المركز الأول: لطالبٍ من لندن، والثاني: لطالبٍ فرنسي، والثالث: اسم الطالبة نُهى العربية السورية.

وأَخَذَ التصفيقُ يُدوِّي في القاعة الكبيرة مُهَنِّئًا، بدأت التهنئات تنهال علينا، تقدّمتُ وخالد من المعيدِ، نشكره ونشكر لجنة التحكيم والمدرسين وهم يقدمون التهانيلنا بتميُّزِ وتفوُّقِ الطالبة نُهى خالد العثماني لاجتهادها وتفوقهاتستحق ما نالته من ترتيبٍ ودرجةٍ، وهذا سيدعمهالإرسالها بعثةً مع الفائزين إلى إيطاليا لمتابعة دراستها هناك.

لم أعرف....أ أفرحُ لذلك، أم أعيد التفكير بالأيام القادمة والتي لا أعرف ماذا ستحمل لنا؟!

بعد عودتنا إلى البيت أخذتُ ابنتي لحضني وأنا أقول لها: لا أعرف كيف أُعبّر لكِ عن فرحتي بكِ لما وصلتِ إليه. أَخَذَ وليد كعادته يضحك ليميع الموقفَ كلَّه وهو يقول: إنها مجردُ خربشاتٍ بسيطةأثارت كلَّ هذه الضجةِ، واللهِ لا شيءَ يستحقُّ، وهو يُلاعِبُها ويغيظها.

وخالد يقف ينظر إلينا متأملًامبتسمًا وقال:

- حبيبتي نهى، كنتِ أكثر وأكبر من كلِّ توقعاتي لكِ بهذا النجاح رغم ثقتي الكبيرة بك وبنجاحك. هي خطوة في طريق النجاح، أهنئك ابنتي، وقبّلها وهو يَلُفُّها ويتابع: ما فاجأني أنكِ من السنة الثانية والفصل الأول منها....ضَحِكَ وهو يقول: ولكنكِ ابنةُ أبيكِ وابنةُ أمِّكِ، نظر ضاحكًا.

كان يومًا جميلًا غيرَ متوقعٍ لكل هذه السعادة التي عشنا بها تلك الأيام، وحمل لنا ذكريات جميلة.

قلتُ لخالد ونحن ندخل غرفتنا لننام بعد نهارٍ طويل وليلٍ حافلٍ بالمفاجآت الحلوةِ السعيدةِ:

لا أعرفُ لماذا ينتابني حنين لأن نعودَ لسوريا جميعنا وننتهي من هذه الغربة، بالنسبة لعملك المشفى بدمشق تنتظرك من سنين وأيضًا بلدك بحاجة لك، ومكانك محفوظ ينتظر عودتك، ألست مشتاقًاإليهم؟!

حضنني كعادته وهو يقول: إن شاء الله قريبًا،وأنا حنان أحلُم بالعودة مثلك تمامًا. شدّتني هذه (القريبًا) تعلّقتُ بها، أقلقتني طوالَ الليل، تركتني أفكر.. هل قالها خالد عبثًا ليرضيني، أم قالها لأصمت؟أم هو حقًا يعنيها ويحلم بها كما ذكر ويُخطِّطُ للعودة؟

غفت جفوني على حُلم العودة أملًا، فهل يتحقّقُ الحلم ونعود؟

أيُّ مهنةٍ تفقدُ قيمتَها الإنسانيةَ وهدفَها المعنويَّ والسامي عندما يكون هدفُها ماديٌّ وماديٌّ بحت.كم عرفتُ من أطباء من أصدقاء خالد بدمشق وهنا بلندن, هدفهم الوحيد هو المادة وبعدها الشهرة.... الشهرة مع نفسيّة متعالية!

جعلني هذا متأكدة أنّ اختلاف خالد عنهم قبل أن يكون طبيبًا, هو أنّ المادة لم تكن هدفًا له في يومٍ ما...عندما اختار الطبَّ كان لأنه أحبَّه منذ سنواته الأولى الصغيرة،عندما كان طفلًاويسأله أحدٌ من العائلة ماذا تريد أن تكون عندما تكبر؟ كان جوابُه طبيبًا، ووَعَدَهُ والدُه بأنه سيكون له ما يريد، مشفًى كبيرٌ وعيادةٌ خاصةٌ يمارس فيها مهنتهالتي يحب فقط أن يجتهد. كبر الحلم معه وهو يكبر إلى أن وَصَلَ للثانوية العامة، وأخذ معدل يكفي لأن يكون طبيبًا.هاهو اليوم أعظمُ طبيبٍ بحقٍّ وجدارةٍ، لم يسعَ للمادة لأنّ لديه ما يكفيه بقناعة، والشهرة جاءته من نجاحاته بعمله وإتقانه وإخلاصه لها.

لن أتحدث عنه كثيرًا لأنه زوجي، بل لأنه الرجل الذي يحمل كلَّ الصفات التي تحلم بها المرأة للرجل الناجح والإنسان المخلص الوفي.

عندما كان بدمشق قبل سفرنا لندن، كم كان اهتمامه كبيرًا لأكثر العائلات والمرضى ذوي الدخل المحدود، لم يكن ليتقاضى منهم أجرًا، بل كان يُؤَمِّنُ

لهم الدواءَ ويذهب لزيارتهم ليطمئنَ على علاجهم وشفائهم وقتَها يرتاح، ليس هذا في بداية حياته كطبيب وممارسته للمهنة, بل بعد أن أصبح طبيبًا وله شهرته رغم أن اختصاصه جراحة مخ وأعصاب.

كم أحبُّ هذا الرجل! وكم تدهشني اندفاعاته المهنية والإنسانية التي لم تعد موجودة بزمننا هذا. الآن خالد ليس من هذا الزمن، إنه من الزمن الجميل، الزمن الرومانسي في كلِّ شيءٍ في عمله ومزاجه وحياته اليومية وعلاقاته مع زوجته وأولاده وأهله، مع كلِّ الناس حوله.

خالد مميزٌ دائمًا بكلِّ شيءٍ لهذا أعرف تمامًا كم يحترم اختيار نهى للرسم والنحت وكثيرًا كان يقول لي:

لا يستطيع الإنسانُ أن يبدعَ ويتفوق في عملٍ ما إلّا إن كان يحبُّ هذا العملَ والمجال الذي يعمل فيه. الإبداع يكون للشيء نفسه لا للنتيجة المادية التي تلحق العمل، فالمادة ليست هدفًا وغايةً للنجاحِ والتفوقِ، ولكنّ المسيرَ في طريق النجاح هو تواصلٌ لكل الأحلامِ وتحقيق تلك الأحلام.

كلنا يحلم...كلنا يتمنى... كلنا نعيش الأمل ونأخذ معنا كلَّ التفاصيل الصغيرة والكبيرة لنجعلها حلمًا. الذكريات...نطوي صفحاتها مرارةً كانت أم سعادةً لنفتحها يوم نحتاج إلى ما طوته تلك الصفحات إلّا الموت...

هو وحده الذي يتوقف عنده الحلم ليصبح وهمًا وسرابًا قد يحمله الآخر من بعدنا ويكون رسالةً ليواصلَ بعضَ التفاصيل ممّا كانت عليه حياتنا.

لماذا نصّر على الخوض في إحساسٍ يراودنا لنعيشه بكل غموضه وأسراره؟لماذا نبحث وندقّقُ البحثَ عمّا يعيش بداخلنا ويسكن الذاكرة والقلب؟ لماذا نفصل الروحَ عن الجسد وهي لا تنفصل إلّا بالموت أو النوم فهو الحقيقة الوحيدة بحياتنا التي يتوقف عندها كل شيء؟! كلُّ شيءٍ إلاّ الحب، الحبُّ هو موروثُ الآباءِ والأجداد والأجيال على مرّ العصور، أن نُحِبَّ.. أجل أن نُحِبَّ، نحبُّ في البداية ذاتنا فهي الطريق الأمثل للوصول لحبِّ الآخرين والتواصل معهم بصدقٍ، صدقِ الحب وأمانة القلب والضمير.

هكذا أصررتُ أن يكون حلمُ العودة إلى الوطن هو الحقيقةَ الوحيدةَ التي أسعى لها في أيامي هذه لذلك تمسّكتُ بكلام خالد، وأغلقتُ جفوني وغَفَتْ عيوني المليئة بالأحلام عليه لأستيقظَ في صباح اليوم التالي على نشاطٍ غريبٍ في البيت، خالد والأولاد على غير العادة ما إن دخلتُ الحمامَ لأنظفَ أسناني وأغسلَ وجهي لأخرجَ إلى المطبخ كعادتي أُشرِفُ على عملِ مدبرة المنزل وهي تحضر الفطور وأعمل قهوتي وقهوة خالد بنفسي. ولأني لم أراه في السرير اعتقدته بغرفة مكتبه كالعادة قبل ذهابه للمشفى

بهذه الساعة من الصباح، ولكنني فوجئتُ به ينتظرني لنشربَ القهوة التي أعدها بنفسه لنا جميعًا.

ونُهى تُشرِف على تحضير اللمسات الأخيرة للفطور، ما هذا النشاط ؟ ماذا أرى اليوم؟ضَحِكَ خالد وقال هو ونهى معًا: صباحُ الفل والياسمين الدمشقي لأجمل وردة وياسمينة لهذا البيت وهذا العالم... عالمنا.

قلتُ لهم: مهلًا مهلًا، ماذا هناك أخبروني؟

أجاب خالد: تذكري ياحلوتي ماذا حَدَثَ بمثل هذا اليوم؟

وضمتني نُهى تقبلني قائلةً: مامي، أنا سعيدةٌ جدًّا.

قلتُ لها: وأنا أيضًا سعيدة بك وبنجاحِك.

ردّ خالد: لا، هناك شيءٌ أهمُّ...تذكري حنان ...اليوم هو الواحد والعشرون من آذار هو عيدك، عيدُ أجمل أم ... وأجمل حبيبة وصديقة عمري كله. لم .. لم أستطع الرد، دَخَلَ وليد يركضُنحوي مُقَبِّلًا وبيده وردٌ جميلةٌ وصلتْ لتوِّها إلى البيت باسمي.. هديةٌ من أحبِّ ثلاثة إلى قلبي...

الإهداء...

إلى الأم والزوجة والحبيبة وصديقة الجميع

إلى حنان ..

كلُّ عيد أمٍّ وأنت حنان يا أحبَّ إنسانةٍ، وأطيبَ أمٍّ

التوقيع

نحن الثلاثة...

أسعدني ... أسعدتني هذه الطريقة المَرِحَةُ المعبرةُ عن الحبِّ، أسعدني ما يفعله خالد والأولاد في كلِّ موسمٍ لعيدِ الأم، وأُصِرُّأنا على أنه عيدُ العائلة كلِّها؛ لأنه يجمع ويَلُمُّ ويظهر الحبَّ.. ونحن معًا دائمًا.

كان أجملُ صباحٍ ويومٍ يمرُّ بعد أن كبر الأولاد وأصبحوا شبابًا، أمضينا فترةَ الصباح وبقية النهار معًا، ولا أعرف كيف أُعبّرُ لهذا الرجل عن امتناني له عن كلِّ ما يفعله لأجلنا ولأجل هذا البيت.

تلك الألفة والمودة والحب الذي يجمعنا يذهلني لدرجة أني لا أعرف كيف يمكنني استغلالتلك العاطفة من خالد، أجل أقول استغلال لأن ما فعلته هو كذلك حين بدأت ألحّ عليه لأن يأخذ قراره النهائي وترتيب أموره

للعودة إلى الوطن، أحيانًا يكون القدر يسمعنا ويقرر معنا ويتفق بقراره لنا فيأخذنا لحيث لا نعلم من قراراتنا نتيجة أو معنى!

فما حدث في ليلة عيد الأم وبعد الاحتفال، أخذتُ أتصل بأمي بعد محاولاتٍ كثيرةٍ طيلةَ النهار ولم أنجح بذلك حتى المساء وبداخلي قلقٌ لم أظهره كي لا تضيع الفرحة والسعادة عن أولادي وزوجي، ولمّا أخذ الخط يرن سمعت صوت أمي ليس مريحًا رغم كل محاولاتها في عدم إظهار ذلك، ولمّا أصريت عليها أخبرتني أن شوقها لي والأولاد وخالد وفرحتها لسماع صوتي هو الذي جعلها هكذا من الفرحة.. لا.. لم يعجبني كلامها،لا أصدق.. إحساسي يقتلني ويقول لي أن هناك شيئًا ما حدث لأمي صوتها لايعجبني أبدًا.

تكلّم خالد معها وعبر عن اشتياقه لها وطلب منها أن تأتي لزيارتنا وأنه سوف يرسل لها الأوراق اللازمة لذلك.

قالت له لا داعي لأن تتعب نفسك، وكلمتها نهى ووليد أيضًا، ولكن شيئًا لم يطمئنني.

لا أحد يحسُّ بها كما أحسُّ أنا بها.. إنها أمي وأنا قطعة منها. طلبتُ جميلة أكلمها، أخبرتني بعد جهدٍأن صحتها متعبة قليلًا ولا داعي لقلقي عليها

هي ترعاها بعيونها، وأغلقت الخط وأنا أوصيها برعايتها والاهتمام بها وأن تخبرني إن حدث لها أيُّ مكروهٍ.

فور انتهائي اتصلتُ بأخي سامي..أول كلمة قلتها له: أمي ماذا بها؟ أرجوك سامي أخبرني الحقيقة، قلبي يحدثني أنها متعبة جدًا، صوتها يقول ذلك أيضًا، فهي ليست كما تركتها آخر مرة ولا آخر حديث لها بالهاتف معي، وضعها يذكرني بمرضها القديم.

أخذ خالد الهاتف مني وتكلم مع سامي..

أخبره بدوره أنها متعبة فقد عادت لها الحالة التي مرت بها في السنوات الماضية، فَهِمَ خالد كل الموضوع،ولما انتهى ضمّني إليه قائلًا:
- قلت لك من أيام أننا قريبًا سنعود إلى سوريا، أعتقد أنه قد آن الأوان للعودة، وحان الوقت لذلك سأحجز لك والأولاد بعد أن ننهي كل شيء هنا, وأنا ألحق بكم حال تصفية أعمالي التي قاربت على الإنتهاء.

حنان لقد عانيتُ من فقدان والديّ وأنا بعيد عنهم، لن أتركك تعانين ما عانيت وتعيشين الألم الذي عشته وأحسسته وما زال بداخلي يشعرني بالذنب، لا تبكي قريبًا ستكونين بقربها إن شاء الله، أنت من سيرعاها وتحت إشرافي لن نتركها تعاني الوحدة بعيدًا عنك بأيامها الأخيرة،وعد مني

حنان، ضَحِكَ متابعًا: ألا تذكرين؟

أخذتْ دمعةٌ تترقرقُ في عينيه وهو يداريها كي لا أرى إحساسه بألمه على والديه اللذين توفيّا دون أن يراهم ويرعاهم.

- بالنسبة للأولاد سنفكر بوضعٍ مريح لمتابعة دراستهم، معارفنا السوريون كثيرون هنا سيساعدوننا في تأمين احتياجاتهم للسنوات القليلة الباقية لتخرجهم.

هكذا انتهى هذا اليوم..ابتدأ بفرح وانتهى بحزنٍ وألمٍ وقلقٍ على أميوهي حياتي كلها. أمضيت الأيام الباقية في لندن، كانت أكثر من الشهر ولكنني أحسستها بطول سنة وأكثر، كل يوم اتصل بأمي وسامي وكان خالد أيضًا يتصل بأصدقائه بالمشفى الخاص به بدمشق اختصاص مرض أمي وطبيبها المعالج القديم، أوصاهم بالاعتناء بها واعتبارها حالته الخاصة، وإن لزم الأمر نقلها إلى المشفى فورًا دون سؤاله، وإعطائه أخبارها الصحية يومًا بيوم مِن تقدُّمٍ أو تراجع بالعلاج.

هكذا مرت الأيام مشحونة بالقلق والخوف، لكن شيئًا بداخلي كان ينذرني بالنهاية وأنها تقضي أيامها الأخيرة بالدنيا وتحثني في كل اتصال بها دون أن تطلب لأن أسرع في العودة إليها قبل مفارقتهاالحياة، والدموع

لا تفارقني أبدًا،أخاف أن أصل دمشق ولا أراها؛ عندها لن يكون لديّ دمشق.. ولا وطن....هي دمشق والوطن والترابونسائم الهواء الذي استنشقه من أرض دمشق، هي الحنين لكل ما هو جميل بحياتي.لا ....لا يمكن أن أعود دمشق ولا أراها.

أَحَسّ خالد بما أعاني وما يسكن داخلي هذه الأيام، قال لي ذات صباح:

- حنان اذهبي أنت والأولاد سأحجز لكم على أول طائرة ليومِ غدٍ، وأنا سأتابع ترتيبَ كل الأمور المعلقة لننتهي من هنا، وأرتب وضع الأولاد لمتابعة دراستهم وألحق بكم سيكون ذلك قريبًا وخلال أيام قليلة.

قلتُ له: ننتظر معك لنعود معًا...

رد قائلًا وهو يلفني بحنانه: اذهبي أنت، وجودك اليوم بجانبها أهم من كل شيء.

واتفقنا على ذلك.

وها نحن...أنا ونهى ووليد بالطائرة عائدين لسوريا، إلى الوطن، إلى دمشق، إلى أمي، إلى عمري الذي ضاع بالغربة لنحصد النجاح. قطع أفكار ذاكرتي صوتُ المضيفة تطلب من الركاب ربط الأحزمة. وأخذ وليد ونهى يدردشان بتوقع من سيكون بانتظارنا في المطار فور وصولنا، وهبطت

الطائرة..وهبط معها قلبي وشوقي، وتهيأنا للنزول منها واحدنا تلوالآخر مع الركاب. وصلنا أرض المطار ولمست قدمانا أرض دمشق، أرض الوطن، دخلنا القاعة لاستلام الحقائب دخولًا بقاعة الوصول.

رَكَضَ وليد وهو يلوح بيده ونهى تلحق به، نظرتُ للاتجاه الذي يسيرون إليه رأيتُ أخي سامي وأولاده - ما شاء الله - أصبحوا شبابًا وصبايا، رأيت أيضًاشبابًا وصبايا يتدافعون للسلام على وليد ونهى وأنا أقترب، ولما وصلتُ إليهم عرفتُ أنهم أولاد عمهم عصام وماهر.

ما أجملهم من أهل! وما أحلاهم من عائلة إن شُغِلَ الأهلُ الأولادُ يقومون مقامهم، ذلك أيضًا للتواصل الذي كان على النت والمحمول.

سلّمنا باشتياقٍ على الجميع وحبستُ دموعي كي لا أزعج الآخرين في لحظة اللقاء.طلبت من نهى أن تذهب ووليد مع أولادِ عمهم وخالهم سامي على أن ألتقي بهم بعد عودتي من المشفى، ذهبت مع سامي بسيارته والحقائب معنا مباشرة إلى المشفى وعندما وصلنا أخذتُ أستعجل الخطوات لأصل غرفة أمي ولكنني أراها بعيدةً وخطواتي بطيئة لا تساعدني على الوصول فقدماي تخونني منهما الخطوات ولا أستطيع المتابعة، شدني سامي قائلًا:

- حنان ماذا بك لم اعتادك ضعيفة هكذا.

قلتُ له: إنها أمي يا سامي، أمي .. وصلنا غرفتها أخيرًا.. رأيتُها على السرير لا حولَ لها ولا قوة.. جسد ضعيف تأبى الروح أن تفارقه وأحد الأحبة في غياب، وكأنها أحستْ بقدومي أو رائحتي وصلتها، فرائحة المحبين تصل إلينا قبل وصولهم، فتحتْ عينيها المغلقتين منذ أيام كما أخبرني سامي، حركت شفتيها وهي تنادي: حنان...حنان.

تقدمتُ منها أخذتُ يدها وأنا أحبس الدموع خوفًا من أن تغافلني وتسقط فتحس بها وتحزن على نفسها، أخذتُها بحضني أضمُّها كطفلةٍ صغيرةٍ تعود لحضن أمها، أصبحتُ أنا الأم وهي طفلتي .

حاولت ضمي ولكنها لم تستطيع، قالت بصوتٍ ضعيفٍ وحزنٍ أليمٍ:

- اشتقتُ لك حنان، لا تتركيني، ابقي بجانبي.. أين الأولاد؟

قلتُ لها: أمي، أنا هنا لأجلك لأكون معك وبجانبك لن أتركك أبدًا، أنا بحاجة لك دومًا؛ سنعود إلى بيتك الذي ينتظرك قريبًا ونكون معًا إلى الأبد لن أتركك أعدك.

قالت: حنان يبدو أنها النهاية يا حبيبتي.

قلتُ لها: لا تقولي هذا الكلام أنت بحالةٍ جيدةٍ وقريبًا سنخرج من المشفى كالمرة السابقة أتذكرين؟ خالد سيأتي قريبًا ويكون معنا وإلى

جانبك لن يتركك أبدًا.. يجب أن تكوني قويةً ساعدي نفسَك أرجوك أمي ..أحتاجك لا أستطيع الحياة بدونك. ردّتْ بصوتٍ ضعيفٍ: سأحاول ابنتي.. سأحاول لأجل أن أمضي معكم والأولاد أشبع منكم ولو لأيامٍ قليلةٍ، أدعو الله أن يطول بعمري بضعة أيام فقط.

قلت لها: لا... بل نمضي بقية العمر معًا وتفرحين بأحفادك، أولاد سامي وأولادي..أَلَا تريدين أن تحضري فرحهم... لن يكون هناك أي فرح بدونك... ألا تذكرين كلامك؟ طلبتُ من سامي أن يتصل بالأولاد لتراهم وتشبع منهم، وأخذتُ أرتبُ لها بعضَ الأمور وأنا أرى السيروم معلق بيدها، لم يعد لها نفس على الطعام، هكذا أخبرتني الممرضة.

قلتُ لها: ستأكل معي أنا واثقة.

أحضرتُ بعضَ الطعام وأجلسناها معًا، وأخذتُ أطعمها بيدي وأخبرها عن نجاحِ نُهَى والمعرض، ووليد وتفوقه وكم هم بشوقٍ لها.

أحسستُ أنها تستعيد شيئًا من الأمل في استعادةِ عافيتها، وأخذتْ تأكلُ بهدوءٍ غريبٍ، كانت وجبةً صغيرةً وقليلةً جدًّا لتساعدها على متابعة وجودها وأهميتها لنا وتشعر كم هي غالية علينا جميعًا، ووجودها بالحياة نحتاجه، ما زال لها أهميتها عندنا ولن نتخلى عنها.

عرفتُ من جميلة مدبرة منزلها أنها لم تتركها أبدًا بإشرافِ أخي سامي وزوجته وأولاده ووجودهم معها لم يتركوها، وعودتي ربما تعيد لها شيئًا من الأمل، هذا ما أنا بحاجةٍ له الآن، أعيد لها بعضَ الأمل للحياة.

وصل الأولادُ، أولادي وأولاد سامي، لا يمكن الوصف الذي بإمكاني وصفه لها كيف انتعشتْ من جديدٍ كالنبتة الذابلة التي تنتفض بعد أنترويها بالماء كالأرض المتشققة من الجفاف وعندما تروى تعود لها الحياة، بالماء تعود الأرض للحياة.

هي بالحب والحنان والود وأولادها وأحفادها حولها، أعاد لها الحياة من جديد أو جزء من الأمل بعد يومين من وصولنا دمشق. وصل خالد لم أتوقع وصوله بهذه السرعة، توقعتُأنه لن يأتي قبل أسبوع على الأقل. هذا ما جعل أمي أكثر إشراقًاوسعادةً بعد وصول خالد. أخذها بحضنه كأمٍّ حقيقةٍ له، ضمها إليه يقبلها وهو يقول اشتقتُ لك ولأكلاتٍ كثيرةٍ مِن صُنع يديك، تعافي بسرعةٍ لنعودَ معًا بحفلةٍ كبيرةٍ, إننا نحتاجك كلنا بدونك، ليس لوجودنا أي معنى. نظرتُ إليه ودموعي تغافلني وتنحدر بهدوءٍ على وجنتي. آهٍ يا أمي.. اهتمام خالد الزائد بك يقلقني، يخيفُني رغم أن علاقته بك هكذا، ولكنّ إحساسًا بداخلي يقول لي إنني سأفقدك قريبًا.

عيون خالد تقول هكذا نظرت إليه وفهم ما أقصد، خرج من الغرفة ولحقت به؛ تركت نُهَى تجلس بجانب سرير جدتها ووليد من الجانب الآخر، وصلتُ غرفةَ خالد بالمشفى وجلسنا وجهًا لوجهٍ. قال: حنان، أنتِ مؤمنةٌ بالله، وهي سعيدةٌ بوجودنا حولها وهذا أقصى ما نتمناه والباقي على رب العالمين.

تأملتُه وهو يتابع: لا أخفيك أن وضعها سيءٌ أقول لك هذا لأني لا أريد أنتصدمك الأيام القادمة لأنها ستكون قاسية عليك وعلينا جميعا بعد الأمل..إنها الحياة يا حنان, بوسعك أن تمضي كل الوقت بجانبها لا تتركيها أنت والأولاد وسامي، هي تحتاجكم اليوم أكثر من أي يوم مضى، لهذا استعجلت عودتك إليها.

غمرني ودموعه تتساقط كالمطر أكثر من دموعي، مسحنا دموعنا وعُدنا إليها نرسم ابتسامةً كبيرةً على شفاهنا ونطلب لها الشفاءَ والتخفيفَ من الألم.

لم ينتهِ الأسبوع بعد وصولِ خالد حتى فارقت الحياة وكأنها كانت تنتظر وداعنا وأن ترانا حولهاملتفين نحيطها بالحب. استسلمتْ لقدره تعالى، وماتتْ مطمئنةً بعد أن ردّ إليها عافيتها ووعيَها، إنها سكراتُ الموت وصحوةُ الحياة، نصحو بها ونغفو لتنتهي الحياة.

لا أعرف كيف بوسعي أن أصف الإحساس الذي سكنني بتلك اللحظة التي فارقت فيها الحياة وعيونها تقول الكثير وابتسامة هادئة على وجهها تستقبل بها عالمًا آخرذهبتْ إليه طائعةً راضيةً.

لم أعِ بعدها سوى أننا جميعًا في منزلها الكائن بالمزرعة نأخذ العزاءمع الأصحاب والأصدقاءوالأهل، ولن أنسى أبدًا وقفة زوجي وإخوته مع سامي، وكأنها أمُّ الجميع..وأخت زوجي كانت لي الأخت والصديقة هي وزوجات أخوتها.. وأولادهم لم يتركوا أولادي وأولادأخي سامي،الكل كان عائلة واحدة، هذا ما أحبته أمي من زواجي بخالد أن يكون لي عائلة ثانية وإخوة آخرين، أحتاج وقفتهم بجانبي في مثل هذه المواقف الصعبة والمؤلمة.

أحمد الله كثيرًا أننا عُدنا لسوريا قبل أن تفارق الحياة ورحمني الله بذلك من عذابٍ أحمله معي بقية عمري ولن أنساه حتى أموت..آه كم رحمة الله واسعة بنا، ينقلنا من مكانٍ إلى آخر ليحضر لنا مواقف بالحياة لا نتخيلها.. الله أرحمُ منّا على أنفسا. عدنا نعيش الحياة من جديدٍ بدون أمي وكأنني ما زلتُ بالغربة بعيدةً عنها، أنتظر أن أكلمها بالهاتف أو تتصل هي بي كعادتها، وكتبتُ لها رسالتي التي لم تصل وأعرف أنها لن تصل وأنا أعيش بعيدًا عنهاوبكلِّ حنيني وشوقي بعد وفاتها أعرفها معي، أعتذر لها

عن كلِّ ألمٍ وقلقٍ سببتُه لها

رسالة الى أمي

قلتُ لها:

من حنينِ الشوق بداخلي أكتبُ لك أمي وأعتذر.وأنا أعلم أنك لن تقرئي رسالتيولكنك ستحسيها وتشعري بها بروحك التي تسكنني وتعيش معي ولن تتركني أبدًا. ينتابني الألم وأعيشه مراتٍ ومراتٍ ولا يرحل عني إلا بلمسةٍ وضمةٍ منك أمي ودفءِ أمي ودمعةِ حبٍّ من عين أمي فأنت الوحيدةُ التي تبكي دموعك على ألمي وحزني وبكائي. رباطي كان بك بمشيمتك التي احتوتني بأول ضمةٍ وأولِ حضنٍ ليقبل وجودي، وعرّفتني متعةَ النومِ بدفئك، ونشوةَ الاستيقاظِ بحنانك الذي ضمني وربطني بذلك الحبل السري رَبَطَهُ اللهُ بي وربطني بك ولم يفصلني عنك رغم أنهم قطعوه عند ولادتي وفصلوني عنك لأستقبلَ الحياة وحدي، فكانت أولَ صرخةٍ لي بهذه الحياةِ فَحَضَنَنِي دفؤك لأطمئن أنني لستُ وحيدةً وأنني مازلت بحضنك أنعم حياتي معك دفءٌ وأمانٌ وحنانٌ ملأني بحمايةٍ ممّا يجري حولي من مصاعبَ وألمٍ ولا يدَ لي بهاسوى أنني وُجِدتُ على هذه الحياة لأستقبلَ كلَّ تغيراتها معك واليوم أصبحتُ وحدي بدونك أمي.

غذائي كان غذاءك، ومائي كان ماءك، ودمي كان دمك، ودفئي كان دفأك، ونفسي كان نفسك ولم يستطيع أحدٌ أن يفصل كل هذه الروابط ليفصلني عنك،لا أحد استطاع فصلي عنك، أنت أمي وكل مسار حياتي أخذته من رحمك الذي احتواني جنينًا يكبر بداخلك، رحمك هو حضنك الذي كَوّنَنِي الخالقُ فيه وهو حضنُك اليوم الذي افتقده وأشعر بغُربةٍ عن العالم كلِّه وأنا بعيدة عنه وعنك، أبحث عن بديل لهو ليسهناك أي بديلٍ.

أمي، أقول أمي وكِياني كلُّه يرتعشُ محاولًا لمس داخلك لأدفئ بك من جديدٍ ولو بحلمِ الذاكرة.. ذاكرتي وضعفي وأنا جنينٌ بداخلك أمتصُّ حبلَك السريَّ غذاءً لروحي،فغذاءُ الروح هو الوحيد الذي لم تقطعه يدُ الطبيب بمشرطه؛ لأن الروح لا تتجزأ، موتك موتي ولن يستطيع الموت أن يفصلني عنك فأنت الروح التي تعيش داخلي وداخل جسدي، تمتزج بروحك لأكونَ أنا وتكوني أنت وحدك أمي لأنني جزءٌ منك ومنكِ انك الذي أحبّ لأصنعَ منه كِياني لأعيشَ بك وأدفئ بك وأحتمي بك من كل العواصف التي تجتاحني عندما أضعف أمام الوجود والحياة فأنت وجودي وقوتي، ضعيفة أنا بدونك أمي، بعيدة عن حبك وحنانك. من قوة حبك لي عرفت معنى الأمومة عندما أصبحت أمًّاالأطفال يزداد حبي وخوفي عليهم وتعلُّقي بهم كما كنتِ تفعلي معي بطريقة حبِّك لي؛نحن لا

نحسُّ بقيمةِ ما فعلته لأجلناإلا بعد افتقادك واحتياجنا لك فأنت الوحيدة التي تسعد لسعادتي وتحزنُ لحزني وتحتوي كلَّ أخطائي وكلَّ ضعفي وكلَّ حيرتي لتعطني القوةَ لأتابعَ مسيرةَ الحياة من بعدك وحيدةً..كم أشتاق لدفئك وحضنك ورائحةِ أمومتك لكي تنعشني وأنا بغربةٍ عنك وعن دفءِ وطني فحضنك هو وطني.

حنان

رسالة كتبتُها وأوصلتُها روحي لروحها.

لم أصدق أنني لن أسمع صوتها ولن أراها، تعبتُ من هذا الإحساس، أتعبني كثيرًا لفترةٍ طويلةٍ إلى أن تعوّدتُ مع السنين وشغلتني الحياة، أولادي وزوجي والعائلة.

اتّصلَ بي سامي يسألني: متى ستنتهي نهى من دراستها وتعود إلى سوريا؟

فاجأني سؤالُه، أبعيدةٌ عنهم أنا كل هذا البعد أصبحتُ!

قلت له: ربما هذه السنة لو أرادتْ هي ذلك.

فقد عاد وليد ونهى إلي لندن بعد وفاة أمي لمتابعة دراستهم وكان خالد قد رَتّبَ لهم الأمور مع أصدقاء له هناك.

لم يبقَ لِنُهَى إلّا القليل من الشهور للتخرج، ووليد تابعَ دراسته في هندسة الكومبيوتر لحبه الغريب كجيله لهذا الجهاز والتكنولوجيا الحديثة.

كنا نلتقي مع العائلة مراتٍ عديدةً خلال الأسبوع نتحدث عن هموم الأولاد ومستقبلهم وحياتنا القادمة.

مرّت الأيام تحملها السنين،ويعود الأولاد إلى الوطن لأشعر من جديدٍ أن لي عائلةً بوجود أولادي لقد افتقدتهم كثيرًا، وعدتُ من جديدٍ ومعي زوجي وأولادي وفي وطني وهذا أقصى ما كنت أتمناه لنهايةِ حياتي.

وذكرى أمي ما تزال بقلبي تنبض وخالد يحسُّ بي ويحاول أن يلهيني ويشغلني بأمورٍ كثيرةٍ كي لا يتركني مع أفكاري لوحدي . انشغلنا بعد ذلك بخطبةِ الأولاد وزواجهم، وأخذ ذلك من وقتي الكثير ولكني سعيدة لدرجة كبيرة؛ لأن وليدًا هو من طلب الزواج من ابنة خاله جوان، وسعادتي كانت لشعوري أن أمي ترتاح بقبرها الآن وهي مطمئنة أن الرباط العائلي بيني وبين أخي وأولادنا يزداد متانة.

فاجأتني نهى مع الأيام وهي تخبرني بعد عامها الثالث والعشرون وبعد تخرجها وعودتها لدمشق أنها تحب... هكذا قالت لي وهي تبتسم.

نظرتُ إليها أحسستُ أنّ أمي أنا، وهي تنظر إليّ؛ تأملتُها وأنا لا أعرف

إن كان ما تخبرني به سيسعدني، ماذا تحمل لي نهى بعد هذا العمر والسنين التي مرت عليّ، أي رصيفٍ من محطات الحياة تضعني هذه الصبية التي تشبهني؟

أنا أم وابنتي بعد تخرجها ونضجها تصارحني بذلك، كيف أناقشها؟ كيف أقنعها؟ كيف أواجهها كأمٍلو كان الشخصُ غيرَ كفءٍ لها أو لاينا سبهامن وجهة نظريفهي بعمرٍ فيه من النضج الكثير... تُرى مَن هو؟مَن يكون؟ أهو من لندن تعرّفتْ عليه في المدة التي كانت فيها لوحدها تتابع دراستها ووليد؟ لم تتركني لتساؤلات، أخذتني من صمتي المفاجئ قائلة:

- أمي، ماذا بك؟ أما زلتِ على تلك الحالة من بعد وفاة جدتي؟ نحن معكِ عدتُ إليك ووليد؛ لكي نكونَ معكم أنت وأبي فلا تبتعدي كثيرًا ونحن معكم. عُدنا أمي لدمشق لأجلك لا تخافي من الزمن سنكون حولك ومعك دائمًا.

تساءلتُ...كل هذا الحنان والحب تحمِلُهُ نُهَى وتحسُّ به وخوفي ممّا عانته أمي وحيدةً بغيابي عنها.

تابعتْ تأخذني من نفسي قائلةً:أمي، أقول لك إنني أحبُّ، لم تسأليني مَن أحبُّ، ومَن هو الشخصُ الذي أحبُّ؟

آهٍ يا ابنتي أخاف الصدمةَ، أخاف المفاجأةَ أن يكون غريبًا غريبًا عن الأهل والوطن وعن العروبة....ليتك تفهميني. أخاف ألّا يكون عربيًا وسوريًّا، أخاف ألّا يكون بوسعي أن أرفضه.

أخذتني من صمتي المثقلِ بالظنّ والتخمينِ دونَ أن أتركَ لها متابعةَ الحديث بصمتي القاتل وكأنني لا أعرف ابنتي ولا أعرف كيف ربّيتُها وعلى أيّ قيمٍ وأخلاقٍ عاشت معي، وأنا ماذا فعلت وكل ما ربّتْني عليه أمي تمرّدتُ عليه وعليها؛ هل يمكن أن يعاقبني القدرُ بِنُهَى ليقتصَ مني العذاب الذي سببتُه لأمي يوم أحببتُ ناجي وتمرّدتُ عليها؟! سأموت ألف مرة لو حصل ذلك مع نهى.

لا... لا أستطيع التحمُّلَ، كيف تحمّلتْ أمي كلَّ مافعلتُه بها من عصيانٍ لرأيها وأنا التي تربّيْتُ على مبادئها وأخلاقها؟! ههزتني نُهَى للمرة الثانيةِ قائلةً:

- سأخبرك اليومَ.. بعد عودتي ووليد لمتابعة دراستنا، كنا قد تقاربنا مع أولادِ عمنا وخالنا سامي وتواصلنا معهم على النت والمحمول، لم نبتعد كثيرًا عنكم كنا معكم من خلالهم نتابع أخباركم؛ لذلك كان ارتباطُ وليد بجوان والحمد لله أسعدك ذلك كثيرًا.

كانت هذه أمنية جدتي، أخبرتْ وليد وهي بأيامها الأخيرة بالمشفى أنها ستكون سعيدةً لو ارتبطَ بجوان، وكنا معًا جوان ووليد وأنا وجيمي (دلع

لاسم جمال ابن أخي سامي) بعد وفاتها وعودتنا لمتابعة دراستنا كان وليد وجوان على اتصالٍ دائمٍ وانجذبَ كلاهما للآخرمن أولِ لقاءٍ لهما بالمطار بعدعودتنا معًا وجدتي أحسّتْ بذلكرغم وضعها الصحي وأسعدها بالتأكيد، قالتلوليد أن تلك أمنيتها؛ وأنا اليوم أخبرك أمي أنني وياسر حدثَ لنا ما حدثَ لوليد وجوان، ياسر ابن عمي عصام كنا نتواصل باتصالاتنا حتى تأكدنا من مشاعرنا وحاجةٍ كلٍّ منا للآخر، قرّرنا اليوم أن نخبركم هو يخبرُ أهلَه وأنا أخبرك قبل أن أقول لأبي، أتمنى أن تكوني سعيدةً لنا.

لم أصدقْ ما أسمع..الحمد لله أخذتُها بحضني أضمها لصدري أقول لها: -نُهَى حبيبتي هذا أجملخبر أسمعه،أنا سعيدة سعيدة جدًّا بكم، وأشعر أنّ الله يكافئني بكم أنت وأخيك.

ردّتْ بحزنٍ: أمي، وخالد ألم يعد له مكانٌ..ماذا جرى لكِ؟أمي،أقول لك صراحةً بعد عودتي من لندن لم تعجبيني أبدًا، حنان التي أعرفها لم أجدها، مامي أينأنت وخالد؟ لماذا كل هذا البعد عنه؟ لم أتعود على ذلك منكم. أمي، أنا.. أنا حاولتُأن ألفتَ انتباهَكَ لما يحدث ولكنك بعيدة جدًّا.

لماذا تأتي المفاجأةُ دفعة واحدة، ألهذه الدرجةِأولادي يلاحظون وينتبهون لهذه الأمور قالت متابعةً:

- أمي متى كان أبي يمضي كلَّأوقاته بالمشفى وأنت لاتسألين ولا تهتمين به؟! تعلمتُ منكم الحب.. تعلمتُ منكم أنتم الاثنين أنّ الحبّ أجملُ شيءٍ بالكون، وهذا ما جعلني أقتربُ من ياسر وأحبُّه، فقد أحسستُ بلحظةٍ أننا سنكون معًا زوجينِ سعيدينِ كخالد وحنان. ماذا بك أمي؟ خالد يحتاجك لم تكوني يومًا هكذا، ماذ حصل لك؟ أرجوك مامي وفاة جدتي ليست سببًا لقد مضى عليها أكثرمن أربع سنوات، وأنت كلَّ يومٍ يمضي تبتعدينَ فيها عن خالدٍ أكثر، هكذا سيضيع منك، لو كانت جدتي تَرَاكِ، وهي تراك حتمًا لكنها ليست سعيدةً بك أبدًا ولن تكون، أرجوكِ أرجوك أمي انتبهي لنفسك ولزوجك.

واعتذرتْ ذاهبةً لعملها، وكأنها قصدتْ أن تثيرَ هذا الموضوع، هذا الموضوع الذي يقلقها من مدةٍ طويلةٍ وتتركني لنفسي وتذهب.

دخلتُ غرفتي لأقفَ أمام المرآة لوحدي، نظرتُ لنفسي فاجأني ما أرى.. لست أنا بالتأكيد، ألهذه الدرجةِ أهملتُ نفسي وتهتُ عنها... هذه أنا! حنان!

أرى بعضَ التجاعيد بدأتْ خطوطُها تظهر على وجهي، خيوطُ الشيب تغزو مفرقي، والحياة كلُّها فارقتْ ذلك الوجهَ الذي كان يضج بالحيوية والنشاط، أين حنان؟ أين أنا؟ أين عمري كله؟حزني على أمي طوال هذه

السنين جعلني هكذا، أم خوفي من غربة أولادي بعيدًا عني هو السبب؟ أهو الماضي بعد وفاةِ أمي يعود، أم ماذا؟ ما الذي جعلني أهمل حياتي ونفسي؟ خالد رفيق عمري وحب حياتي ماذا أفعل أنا؟ ناديتُ مدبرةَ المنزلِ تحضر لي الحمام، وأجريتُ اتصالًا بصالون التجميل أخذت موعدًا، وبعد ساعةٍ كنتُ بسيارتي ذاهبةً إلى صالون التجميل بعد أن أخذتُ حمامًا دافئًا، هناك سلّمتُ نفسي لمديرةِ الصالون؛ لتعملَ كلَّ ما تركته من زمنٍ، وتزيلَ السنين المهملة من عمري وأنا أدخل الثامنة والاربعين بغفلةٍ عني.

خرجتُ من الصالون إنسانةً أخرى، ذهبتُ بطريقي إلى المشفى حيث خالد أخذتُ المصعد ودخلتُ غرفتَه، لم أراه انتظرتُ..انتظرتُ طويلًا حتى سمعتُ صوته قادمًا يتحدث مع أحدٍ. وفَتَحَ الباب ودَخَلَ، لمحتُ وراءه سيدةً في مقتبل العمر ترتدي الثوب الأبيض.

هو.. فاجأه حضوري وكعادته حين يراني يقول: حنان يالها من مفاجأةٍ حلوةٍ، اشتقتُ لك.. اقتربَ مني مرحبًا.. والتفتَ خلفه فلم يجد أحدًا.

كانت قد انسحبتْ بعد أن اعتذرت، ولكن خالد لم يسمعها، لأنه قال: دكتورة منال، أقدم لك زوجتي، وسكت الكلام لم يرَ أحدًا، ذهبَ وأغلقَ باب غرفته وأخذَ الهاتف يقول لسكرتيرته أنه لا يريد أن يدخل عليه

أحدٌ، وأخذني بدهشةٍ وهو يقول كم أحبك وكم أشتاق لك.

حركتُ شفاهي لأقول شيئًا، وضعَ يده على فمي قائلًا: أنت هنا معي الآن كما عودتني ولا أريد أكثر من ذلك. لا كلام اليوم فقط وجودك معي من جديد يكفي حنان وهو أبلغ من كل الكلام.

نظرتُ إليه، إلى عيونه العسلية الحبيبة كم أشتاقها، كم أشتاق لصدره، لحنانه، لدفئه، للمسةِ أصابع يده..كم أشتاق لحضنه وضمه.

خلع رداءه الأبيض، وجهّزَ نفسَه وسحبني من يدي وخرجنا معًا يدًا بيدٍ، وقلبٌ واحد كما كنا ليومٍ مشرقٍ جديدٍ بالأمل والحب، ولكنّ شيئًا ما زال يهتف بداخلي ليوقظَ إحساسَ الماضي بعد رحيلِ أمي وبعد كل هذه السنين وبرغم عودتي لزوجي وأولادي بقي هناك حنين لا أعرف له تفسير يشدني إليه، إلى ناجي.

كنتُ أجلس ساعاتٍ طويلةً مع نفسي وذاكرتي أتأمل حياتي كلها، هل صحيح أنني اخترتُ حياتي كلَّها وأنا مقتنعةٌ بخطها البياني الذي سارت عليه وحملت معها عمري كله أم ماهذا الذي يشغل تفكيري وحنيني لماضي تركته برغبةٍ مني برغم حبي الأكيدلزوجي وأولادي إنهم عمري كله، أيمكن أن أخونَ خالدًا ولو بتفكيري؟! لا أستطيع..لا..لا أستطيع أن أصدق

أن هناك همسًا وحنينًا ورنينًا، صوتًا من الماضي يأتي ليوقظَ مشاعري بعد كلِّ هذا العمر لناجي يشدني لأفكرَ به من جديدٍ؛ أخاف أن يعود قلبي ويدق له .. أخاف ولا أعرف هل هو حقيقة ذلك الشعور الذي ينتابني بين لحظةٍ وأخرى، أم أنه الفراغ الذي يسكن داخلي وضجيج الحياة الذي عشت به بعد رحيل أمي؟ وهل لتلك المسافات من الزمن ظهور آخر ينتظرني؟!

إنها الحياة تفاجئا بالكثير وهي تنتظر على بابِ الذاكرة لتقرعَ أبوابها وتدخل، وربما بدون استئذان!

تمت

رقم الايداع / ٢٠٤٧ / ٢٠١٤

الترقيم الدولى / ٩ - ٥٥ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

مطبعة إبراهيم سالم

01144595757